3/15/15
1.125

مطبوعات
مكتبة ومطبعة الشعب

من والد الى ولده

وهي رسائل في التربية والتعليم والآداب كان
يبعث بها الى ولده من وقت لآخر الكاتب المشهور

احمد حافظ عوض بك

اولادنا اكبادنا تمشي على الارض

الطبعة الاولى

في مارس سنة ١٩٢٣

مطبعة الشعب بشارع محمد علي بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على جميع الانبياء والمرسلين

وبعد ، فهذه مجموعة رسائل كان يبعث بها إلىّ والدى من مصر وأنا طالب فى الكلية الأمريكيـة ببيروت ، وقد حرصت عليها طول هذه السنين ، حرص البخيل على درهمـه . وما كنت أظن أن هذه الرسائل ستنشر فى كتاب ، كما ان والدى لم يكن يفكر وهو يبعث بها إلىّ ، من القلب الى القلب ، انهـا ستعرض على الانظار ، وتقدم للناس فى مختلف البقاع والأمصار. ولولا ان حضرة خليل بك صادق، أقنعنى وأقنع والدى بضرورة نشرها ، ما ظهرت ، وما نشرت .

فأنا بكل أدب ووجل ، أقدم هذه الرسائل الخاصة إلى أهل الفضل ، وعشاق الأدب ، وطلاب الحقيقة أينما وجدت ، وإن كان لى فضل فيهـا فذلك هى اتى كنت شديد الحرص عليها ، عارفاً بقيمتها .

وإنى أتقدم لوالدى مقبلا يديه ، رافعاً اكف الضراعة أن يطيل فى حياته ، ويحفظه ذخراً لوطنه وامته .

جمال الدين حافظ عوض

امين مكتبة الجامعة الامريكية بالقاهرة

كلمة

ما أكثر ما نسمع عن هذا « الرقى العصرى » فى التعليم والتربيـة ، وما أقل ما نقرأ من المباحث فى الطرق القديمـة التى تؤدى الى الارتقاء فيهما فعلا لا قولا ، وحقاً لا وهما ، فقد أشكل علينا الأمر ، وتشعبت بنا السبل ، اذ أخذنا فيهما بالأسلوب الغربى ، مصبوباً على الاسلوب الشرقى ، بدون تمييز ولا تبيين ، وبغـير هدى ولا كتاب منير ، فأصبحنا فى حالة لا شرقية ولا غربية ، ومشينا فى طريقنا مشية غرابية ، وسلكنا خطة عوجاء ، وصرنا اذا انتمينا ، لا الى هؤلاء ، ولا الى هؤلاء .

وكان أول ما يجب فى هذا الباب ، أن نعمل الى البحث والدرس ، والتوفيق بين الاسـلوبين ، وحسن المزج بين الطريقتين ، لاستخلاص قاعدة بينة ، وخطة محكمة ، يستقيم بها السير ، ويتبين منها الرشد . لكنه باب لم يطرقه فينا الى اليوم طارق ، أو يعالجه مع شدة الحاجة اليه معالج .

وقد استبشرت اليوم خيراً ، عند اطلاعى على هذا الكتاب ، فقد ألمّ بالشىء الـكثير فى هذا الباب ، وتناول القول فيه أحسن متناول

ولو تعددت بيننا مثل هذه الرسائل ، لأيقنا بالوصول الى طريق الكمال المنشود ، ولسعد فينا والد ، ولم يشق مولود ؟

محمد المويلحى

الرسالة الاولى

الى ولدى العزيز

قبل أن تقرأ هذه الرسائل التى وضعتها حباً فيك ، وشغفاً بك ، وحرصاً على مستقبلك ، وهداية لك وارشاداً فى سبل حياتك ، أحب أن أشرح لك العوامل التى دفعتنى الى توجيهها اليك ، وأوضح لك العواطف التى حملتنى على أن أبادر بوضع هذه المبادىء والخطط لك خشية أن يذهب الدهر بى ، كما ذهب من قبل بغيرى . فلعلك ، حين تظهر لك حقيقة مايشعر به نحوك أبوك من عواطف الحب الابوى ، تقدر كلامه حق قدره ، وتتمسك بأهدابه ، وتسلك الطريق الذى يرشدك اليـه . وانى أؤكد لك ، ولـكل انسان لم يصر بعد أبا لمثلك ، أنه لاتوجد فى الدنيا عاطفة أقوى من عاطفة حب الوالد لولده . وأنا واثق أنك إذا فهمت أنت ، ومن كان مثلك ، معنى هذا الحب الذى تتأجج ناره ، وتسرى روحه فى جميع اجزاء جسم ابيك ، لوجدت انك اذا اعتبرت مايلقيه عليه والدك من النصيحة والارشاد وحيا من الذات الآلهية ، ما كنت فى هـذا الاعتبار مبالغاً . لأن النصح الذى يصدر من نفس متشبعة متشعة بنور هذا الحب ، لهو مستمد من وحى الله الى القلوب التى خلقها وأودع فيها سره الآلهى .

توجد عاطفات قوية أشد من عاطفة الحب ، كعاطفة الانتقام وعاطفة الطموح إلى المعالى . ولـكنها مع قوتها ، وكبير سلطتها ، ممزوجة بالانانيـة

وحب الذات وشراهة النفس. أما عاطفة الحب، على لينها وحنانها، فهى أمتن رسوخا وأدق امتزاجا بالروح، لأنها أقرب إلى الفطرة، وأثرها منصرف إلى الانعطاف على موضوع وجودها، لا إلى خدمة مطامع القائم بها. بمعنى أن فى حب العاشق إلى معشوقته، دافعاً له الى الانعطاف على مالكة لبه وسالبة فؤاده، وإلى إرضاء شهوة الحب فى ذاتها. وتراه لذلك مستعداً لتضحية كل مرتخص وغال، من نفس ونفيس، فى سبيل اسعاد من تعلق قلبه بهواها. والحب وهو على هذا من الشرف والسمو على جميع العواطف الأخرى، أقل بكثير، فى قيمته ونوعه وجوهره وعرضه، من نوع الحب الخاص من الوالد لولده. لأنه نهاية الفناء فى انكار الذات، ولأنه غير مشوب بشىء من أثر الشهوات، ولأنه فوق هذا وذاك نهاية الكمالات.

ولقد خبرت العواطف على جميع درجاتها وأصنافها، فلم أجد عاطفة أقوى تملكا بالنفس، وتمسكا بالحس، من الحب الذى شعرت به نحوك منذ وجدت إلى اليوم. وان شئت أن أحاول وصف حبى لك فلا استطيع أن أقول سوى أنه نوع غريب من الحب له معان وتصورات وصفات، غير الحب المعروف عادة. وأذكر بهذه المناسبة أنك يوم ولدت جاءنى من صديق ذكى اديب خطاب تهنئة، لايزال عندى بين الآثار التى احفظها ـ ليكون لك ذكرى فى المستقبل وفيه يقول:

« اليوم يفتح لك فى قلبك باب قد كان مغلقا من قبل. وسيكون هذا الحب الابوى واسطة فى تهذيب مشاعرك، كما انه سيزيد فى تلطيف مزاجك، وترقيق وجدانك »

وما كنت اتصور إذ ذاك معنى هذه الكلمات بمقدار ماتصورته بعد

فهذا الحب الغريب المالك لأزمة قلبى، المتشعع تشعع النور فى كل ذرة من جسمى، الممتزج امتزاج الماء بالراح بجميع عواطفى ووجدانى واحساسى، والمتخلل فى كافة خلايا وجودى ...

هذا الحب الكامل هو الذى يملى علىّ ما أوجهه لك ولأخوتك من النصح والارشاد

فكر فى قوة هذا العامل وفى جلاله لكى تركن اليه، وتستمع له، ولا تخالفه فى هدايته:

لا أنكر عليك أنه لا يبعد أن تجد نفسك ـ وقد بلغت فى يوم من الايام مبلغ الرجال الذين عركوا الدهر واختبروا الناس ودرسوا الحياة دراسة كاملة، ـ على خلاف معى فى بعض الآراء التى أعرضها عليك. وانما ارجوك أن تتصور أولا: أننى فيما أضعه لك من القضايا العامة لا يصح أن يوجد بينى وبينك، أو بين أحد من الذين تقدموا لطرق هذا الباب خلاف، وأما فى تفاصيل الأحكام على الأمور والناس والظروف، فان كثيراً منها قد يظهر فى أشكال شتى باختلاف الظرف والزمان والمكان. ولكن حين ينضج العقل ويشتد ساعده فانه يصبح قادراً على مقابلة كل حالة من تلك الشواذ بما يناسبها، ويعلى قدر صاحبه ويحفظه من السقوط فى مهواة الاخطار أو الاسف

ولا بد لى أن انبهك إلى أنه إذا جاز لك فى مستقبل عمرك أن تناقش رأيا من آرائى أو تضعه تحت منظار الشك فلا يجوز لك أن تتعرض لهذا العمل الشاق المحفوف بخطر الخطأ قبل أن تصل إلى مثل سنى واختبارى

فى الحياة وإذا أردت أن تعتمد علىَّ، وأنت بلا شك مقتنع بشديد رغبتى فى خيرك ـ فلا تحاول الاختلاف فى نقطة أو دقيقة من الرأى معى، لأنك لا تصل إلى مثل ما وصلت اليه من التعمق فى النظر إلى الأمور، إلا إذا دست شوك التجربة الذى دسته. أى أنه يلزمك أن تضحى كثيراً من راحتك ومن صحتك ومن مستقبلك، لتعرف مثلما عرفت. وأولى لك ولمن كان على شاكلتك، أن تستفيدوا من تجارب غيركم. واذكر كلمة القائل «لعل آثار اقدامنا فى رمال الصحراء، تهدى ضالا إلى سبيل الأمن والهناء»

وهـذه الرسائل التى أضعها لك إنما أردت أن تكون أمام عينيك تهديك فى صحراء هذه الحياة إلى ساحل السلامة. فاذا لاح لك أن تتحول عنها قليلا فى وقت من الأوقات، فلا تبعد عنها بمقدار يضلك فى مهامها، بل سر يميناً أو يساراً ولكن ارجع بأسرع ما يمكن الى الطريق الذى رسمته لك

كن مع نصحى هذا كما تكون فى حمام البحر وأنت لا تعرف السباحة. لا تترك الحبل من يدك لئلا تغرق، وان درت حوله كيفما درت، فأنت آمن مادامت يدك قابضة عليه. وإذا وصلت الى اليوم الذى تجد نفسك عالما ماهراً بالسباحة، فلست فى حاجة إلى هذا الحبل، ولكنى أؤكد لك انك ستجد نفسك، وقد بلغ بك الشعور بقوتك ومقدرتك مبلغه فاندفعت تسبح برأيك مستقلا ـ فى حاجة إلى الرجوع إلى شاطىء ومرفئه صدر والدك.. وهو فى هذه الرسائل.

والله أسألك أن يوفقك ويهديك ويجعلك أقدر على نصح نفسك من نصحى لها.

الرسالة الثانية

ولدى العزيز

كثير من الناس المحبين لتهذيب أبنائهم وتربيتهم تربية صالحة يسارعون فى إرسال أولادهم إلى المدارس أو المكاتب وهم فى سن صغير جداً كالخامسة أو السادسة. وبعضهم يبدأ فى القاء الدروس بواسطة المعلمين أو المعلمات فى مثل هذا السن، حباً منهم فى حشو أدمغة أبنائهم الأطفال بمبادىء العلوم والعرفان، حتى لا يكاد يصل الطفل إلى التاسعة من عمره إلا وقد خطا خطوة كبيرة فى التعلم، ولكننى أخالف، عن اعتقاد، هذه القاعدة ولا أحب أن أبدأ بتعليمك حرفاً واحداً قبل الثامنة من عمرك وكنت أسمع الاعتراضات فى ذلك فلا أحفل بها لأننى أرى أن التسرع فى حشو ذهن النابت بالمعارف ومبادىء العلوم، وما يرتبط بها من حفظ كلمات اللغات، مما يضر بصحة الناشىء ويجعل استعداده العقلى أقل مما لو ترك ينمو مع الطبيعة يفهمها وتفهمه.

وما أدرى ما فائدة أن يتم المبتدىء دروس التعليم الابتدائى على ما نعرفه فى قطرنا المصرى ويحوز امتحان الشهادة الابتدائية فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمره، ثم ينوء عقله تحت أعباء التعليم الثانوى فلا يكون مبرزاً فيه، وقلما يتمه فى المدة المقررة له. وقد لاحظت فى كثير من الشبان المصريين الذين عرفتهم معرفة تامة وخبرت ماضيهم فى التربية

ولاحظت كذلك فى نفسى ان الطفل المصرى شديد التأثر، سريع البديهة، فاذا أثقل عقله فى صغره، يظهر عليه الضعف والكلال فى كبره . ولاحظت أيضاً أن الطفل الذى يبدأ بتعليمه قبل أن يشتد ساعده فى سن السادسة او السابعة ، وكان شديد الذكاء ميالا إلى الدرس منكباً على العمل بحيث يتمم دراسته المعروفة عندنا، ويحوز الشهادة العالية مثلا فى سن الثامنة عشرة أو العشرين على الاكثر ـ وقد رأيت وعرفت من هذا الفريق كثيرين ـ أقول لاحظت على هؤلاء فى الغالب أن نجاحهم فى الحياة يكون بطيئاً جداً، وقلما يتخطون درجة من الرقى مخصوصة، كأنهم يضعفون جسما وعقلا، وبالعكس لاحظت كثيراً أن من دخلوا فى صف التعليم فى سن متأخر نسبياً ، ينجحون بسرعة وينظرون إلى فروع العلم نظر الرجال، ويختارون منها بمقدار مايؤهلهم للفوز فى الامتحان، والفوز فى الحياة

وقد فضلت فى أمر تربيتك توسط الطرفين فتركتك تلعب وتنمو وتجالد الطبيعة حتى وصلت إلى فوق الثامنة من عمرك وبعثت بك للتعلم وأظن أن تجربتى قد أفادتك لما ألاحظه عليك فى هذا الدور من النجابة وسرعة إدراك ما يعجز عنه من كان فى سن أصغر من سنك ولو أنه يتلقى مثل دروسك

ولا أريد أن أعرض عليك نصيحة أو بياناً فيما يختص بالتعليم الابتدائى لأنك فيه كغيرك مسير لا مخير ، وقل أن تقدر على الأستفادة من رأى أطرحه عليك وأنت فى مثل هذه السن ، والكثير مما اكتبه لك فى هذه الرسائل هو لفائدتك فى أوقات اخرى حين تبلغ سن الادراك الحقيق

وتركن إلى آراء والدك وتنصرف فى تهذيب نفسك، وتوسيع دائرة عقلك، بما أرسمه لك من الخطط والأساليب وبما يخطر على بالك مما يناسب أوقاتك وظروفك

ولكن ذلك لا يمنعني من ان انبهك إلى نقط قد تنفعك فى مستقبل الزمان إذا من الله عليك بأنجال تريد العناية بتربيتهم وتعليمهم، ولعل فيما اكتبه لك فى هذا الباب فائدة أخرى للآباء والمعلمين .

يحسن بالنابت فى دور التعليم الابتدائى ان يحافظ على مبدأ الاتقان او الضبط فى كل مايقوم به من الكتابة، او يكلف به من التمرينات ، لأنه إذا نشأ على صفة الضبط فى ترتيب كراريسه ورسم حروف الكتابة ووضع ارقام العمليات الحسابية وتخطيط المصورات الجغرافية، تربت فيه ملكة العناية والاتقان والدقة ، وتأصلت فيه صفة الحرص على عمله ، والرزانة فى فكره ، ولا يطلب من النابت فى سن التاسعة أو العاشرة أن يجلس للدراسة وينكب على المطالعة، ويحفظ الكثير من الأبيات الشعرية ، والقطع النثرية عن ظهر قلبه ، لأنها لا تفيده بشىء ، ولا يبقى منها حرف واحد بعد زمن قليل ، ولا تربى عنده ملكة الذوق فى الانشاء، أو تترك فى دماغه أثر ما فيها من الحسن وجمال التركيب، فكل عمل من هذا القبيل فاسد مضيع للوقت، بل ومتعب لعقل الناشىء لأنه يحمله اكثر مما يستطيع، ثم لا يشحذ ذهنه للتأمل والاستنتاج والقياس . وإذا كان الانسان فى سن الثلاثين لا يتذكر مما حفظه من القطع والابيات والحكم النثرية والشعرية ، وهو فى سن العشرين وفوق العشرين، فكيف ينتفع ناشىء بما يكلف بحفظه عن ظهر

قلبه وهو فى سن العاشرة مثلا

هذه هى مبادىء علماء التربية الحديثين الذين استفادوا من تجارب غيرهم، وهذه كذلك خبرتى الخصوصية تؤيد فكرة إهمال تحفيظ الناشئين جملا وعبارات مطولة أومختصرة . وكل ما يجب الحرص عليه فى هذا الدور هو شحذ الذهن وتوسيع دائرة الخيال وتنمية فكرة المنطق والاستدلال والقياس فى العقل ، بمعنى أن يقتصر على المطالعة فى تلك المعانى الجميلة والعبارات المأثورة عن كبار الكتاب السابقين ويترك للمبتدىء التأمل فيها، وإدراك معانيها العامة والخاصة، لأن لكل قول حسن معنيين: معنى عاما على ظاهره يكفى إدراكه لتصور الغرض منه، كما أن له معنى خاصاً وهى ما انطوى عليه من حكمة عالية ، أو غرض بعيد ، أو تحليل فلسفى دقيق

وقد رأيت نفسى بالرغم عنها مجبراً على أن أترك لمعلميك فى المدرسة السير بك على ما رسم لهم فى نظامات التعليم، لأنك مضطر أن تأخذ درجات مخصوصة، وتنتقل فى أدوار التعليم المدرسى. لكنى مع هذا وجهت فكرى إلى لفت نظرك لمعنى ما تقرؤه، ولم اكلفك تلاوة ما تحفظه من تلك العبارات حتى لا تفهم أنى أفرح كما يفرح كثيرون من الآباء إذا ردد أبناؤهم أبياتاً من الشعر أو جملا من النثر

واعلم يابنى أن العبرة فى التربية والتعليم هى تثقيف الذهن واعداده لمقابلة الحوادث والأمور المختلفة حسية كانت أو معنوية ، والسعى فى معالجتها وتكييف كل ظرف بما يناسبه . . ولن تقوى هذه الملكة ، ملكة التروى والتصور وقياس المسائل بعضها ببعض ، وتقدير كل حال بما يناسبها—

أو هى بالأختصار ملكة المنطق فى الأمور المادية والأدبية— إلا بالتأمل والاستقراء وإنماء ملكة البحث والشغف بالوصول إلى معرفة الحقائق وتنمية هذه الملكة وتكوينها وشحذها من أسهل الأمور على المتعلم والمعلم والابن والوالد أنظر إلى السموات والأرضين، واسأل عن الكواكب والنجوم واسأل عن الماء والهواء، والأشجار والاثمار، أو الفواكه والأزهار، واسأل كيف يسير هذا الترموای ، وكيف تجرى هذه السيارة ، وكيف تدور هذه الساعة ، وتلك الآلة . . . اسأل كل من يعرف . اسأل معلمك. اسأل اخوانك ، اسأل صديقك ، اسأل جارك . اسأل البعيد والقريب ، والعدو والحبيب، والمواطن والغريب ، عن كل ما تصبو اليه نفسك ، وعما تولده الرغبة عندك من حب الوقوف على الأسباب والمسببات ، والأصول والفروع إلى آخر ما يشتهيه عقلك ، وتتوق إلى فهمه نفسك

هذه الملكة التى أشرت اليها بغاية الأختصار وتربيتها فى نفسك ، أفضل لك ماية الف مرة من كل ما تحفظه من أقوال المتقدمين والمتأخرين لأن ما تأخذه عنهم ، وتحفظه منهم . إنما هو عارية . أما تكوين ملكة البحث والاستقراء فهو منك ولك وهى التى تنفعك فى مستقبل حياتك فضلا عن أنها الزم الصفات وأولى الوسائل فى تلقى علومك ، وتكوين خلقك

فأنا لا أهتم بما تحفظه وتقرأه وتجيده من علم وأدب خصوصاً فى سنك الصغير ، بقدر ما أهتم بحسن نظرك ، وصدق فراستك ، وشغفك بالمعرفة ، وغرامك بالوقوف على حقيقة ما لم تعرف

فأذا تأصلت فيك صفة الضبط فى اتقان عملك وترتيب أوراقك وكتبك وتنظيم ملابسك وأدوات دراستك . .

ثم متى قويت فيك فى هذه السن ملكة التأمل والبحث والاستقراء والاستنتاج والمقارنة ، والشغف بفهم مالم تفهم . .

إذا تم لك هذا وذاك ، فقد وضعت فى خلقك الحجر الأساسى فى بناء تربيتك وكنت به أقدر على مقاومة الزمن ، ومكافحة الحوادث ، ومقابلة الحياة فى متاعبها ولذاتها . والله أسأل أن يكلأك بعين عنايته ، ويهديك إلى الطريق التى أحب وأريدها لك . والسلام

الرسالة الثالثة

ولدى العزيز

أشرت اليك فى ختام رسالتى السابقة الى ضرورة تقوية ملكة البحث والاستقراء والملاحظة ، وقد رأيت أن أتوسع فى هذا الموضوع بما يليق به لأنه فى نظرى أساس كل تربية وتعليم وتهذيب واستعداد للجهاد فى الحياة .

الكثير يابنى مما نتعلمه فى المدارس لايفيدنا فى حياتنا . وليس هذا القول نتيجة اختبارى وحدى ، بل هو رأى عام صرح به كثيرون من ذوى المكانة المعروفة فى عالم التربية والاخلاق والاجتماع . ولو كنت أريد فى هذه الرسائل أن استشهد لك بآراء من لهم شهرة عالية مقررة فى فروع العلوم البشرية لنقلت لك فى هذا المصدر كثيراً من أقوال أولئك العلماء الأعلام

والذى يمنعنى عن الاستشهاد بأقوالهم ، على مافيها من بلاغة الكلم وسمو الفكر ، هو انى اعتبر هذه الرسائل موجهة إلى ولد لايصح له أن يطالب والده بدليل أو برهان أو حجة على صحة دعاويه . ولا أريد من جهة أخرى أن أبعث فى نفسك أثر الشك فى مبدأ أضعه لك بما أتبعه به من الأستناد إلى أقوال من لهم شهرة ثابتة . كما أنى أعتقد أن الحب الابوى الذى يملى علىّ ما اكتبه لك لايناقش فى نصيحة يعرضها ، أو قضية يقررها

وأعود بعد هذا الاستطراد الذى ساقه الى هذه الرسالة ماقررت من أن كثيرين من ذوى المكانة المعترف بها قد صرحوا بمثل هذا الرأى فى التربية والتعليم، وهو أن الكثير مما نتعلمه فى المدارس لايفيدنا فى حياتنا

ومن المدهش ياولدى العزيز أن هذه القضية على غرابتها، قد تكون بديهية متفقا عليها، ومع هذه البداهة وهذا الاجماع لم يبذل الناس شيئاً من المجهود فى سبيل تغيير نظامات التعليم والتثقيف والاعداد للعمل والفوز فى الحياة . بل ترى الناس يبعثون بأولادهم إلى نفس المدارس التى تلقوا علومهم فيها، واضاعوا زهرة الحياة فى المرور من ابوابها، وعرفوا بعد ذلك أنهم لم يستفيدوا منها بقدر ما اضاعوه من العمر والتعب والفرص

نعم حصلت محاولات ضعيفة عند بعض علماء التربية فأرادوا انشاء مدارس جديدة على نظامات حديثة كما فعلوا فى المانيا بنوع خاص ، وكما أراد أن يفعل ديمولان وأمثاله ، ولكنهم إما عجزوا عن استنباط طريقة مضمونة لاعداد الناشئين إلى النجاح فى الحياة والاستفادة منها بمقدار ما يضيعونه من العمر فى زمن التعليم، وإما أنهم لم يجرؤوا على مقاومة الاعتقاد العام لدى آباء الناشئين فلم يتيسر لهم وجود العدد الكافى من التلاميذ ـ ذلك العدد الذى يلزم حتما لعمل تجربة جديدة غير مألوفة ـ وزد على ذلك أن لا بد لظهور فضل الطريقة الحديثة من زمن طويل يكفى لتخريج الطالب ودخوله فى معمعة الحياة ، وإثبات فضل الطريقة الجديدة على القديمة

وليس مما يحتاج إلى إقامة دليل أو مناقشة ايضاحية، أن التربية والتعليم للناشئين يجب أن يناسبا زمانهما وظروفهما . فالعلوم والمعارف والتهذيب

والأخلاق التى كانت لازمة لنجاح شخص وفوزه فى زمن المأمون العباسى وعصره العربى الزاهر، ليست أبداً هى المعارف والصفات التى تمكنه من الظهور فى هذا العصر، الذى اشتدت فيه المنافسة وصارت علومه وآدابه فى حالة تستدعى تربية خاصة كما انه لايصح أن يتصور احد أن ما يتلقاه ابناؤنا فى مدارسنا المعروفة فى بلادنا هو وحده مما يؤهلهم لأن يكونوا من رجال هذا العالم لأن مدارسنا ، ولا أخفيك الحقيقة ، بل ولا اخفيها عن الناس اجمعين، لاتصلح إلا لاعداد طبقة من الأفندية الذين يقرؤون ويكتبون ويلهجون بالفاظ من اللغات الأجنبية وهم كيفما أجادوا الكلام بها، لم يدخلوا فى روحها ، ولم ينهلوا من آدابها وعلومها، وهم فوق هذا وذاك إن امتلأت أدمغتهم بجميع فروع العلوم المعروفة عندنا ، وصاروا من حملة الشهادات فى الطب أو الحقوق أو التعليم أو الهندسة أو الأدبيات، تنقصهم معارف ومعلومات تجعل نجاحهم فى الحياة، واستفادتهم من علومهم المدرسية، أكثر ضمانة وأوفر غاية ، وتنقصهم أيضاً صفات وأخلاق وتهذيب ممتاز يزين نفوسهم ويتوج معارفهم وعلومهم، ويجعل حياتهم اكثر سعادة وأوفر راحة، وينقصهم أيضاً جوهر من جواهر الحكمة الصحيحة وهو جوهر التصريف العقلى وأعنى به تربية الذهن تربيـة واسعة مطلقة تعوده حل المشكلات وتصريف الأمور والنظر إلى مسائل الحياة المختلفة، نظراً فلسفياً راقياً كما ينظر الطائر المحلق فى الجو إلى مدينة من المدن، أو صقع من الاصقاع

وفى اعتقادى أن هذه الصفة الأخيرة أو الجوهر الذى اشرت اليه هو ثمرة العلم والتعليم والتهذيب والدروس والامتحانات وكل ما فى هذا

الوجود من أثر التربية

وهو هذا الجوهر الذى أريد أن انميه فيك واشحذ ذهنك للأستعداد له، وانى اكون راضياً مسروراً، آمنا عليك وعلى مستقبلك فى حياتك، إذا انت استطعت أن تخرج من جميع دور التعليم ودرجاته بذلك الجوهر الذى هو الكل فى الكل

هذا الجوهر الذى هو كما قلت لك غاية الغايات، يجب أن يربى فى عقول الناشئين من الصغر وليس كما يتوهم بعضهم من أن الكثير منه أثر من آثار المزاج الفطرى للانسان — وإن كان فى هذا القول ظل ضئيل من الحقيقة — أو أنه من الأمور التى لايبدأ فى الالتفات اليها الا بعد أن يتقدم الناشىء فى مدارج الحياة ويتلقى جميع أصول العلوم المعروفة ولا تتصورن أن تدريب الذهن، وتربية العقل للنمو اللازم لادراك تلك المنزلة العالية، من الأمور الصعبة، أو هو مما يحتاج إلى دروس خاصة أو علوم مطولة . . أبداً . . أبداً

لو أن كل أب أو والدة أو مربية، وكل استاذ ومعلم، بل كل ناشىء يوجه نظره إلى شحذ القريحة ولفت الذهن إلى التفكير والتأمل والقياس والاستنتاج والملاحظة والمقارنة فى كل مايعرض على النظر، أو يقع تحت الحس، لنمت فى الناشئين تلك الملكة العالية التى هى روح التربية، والتى لاتتم تربية بغيرها .

ونصيحتى لك بعد هذه المقدمة الطويلة، إذا كنت تريد أن لاتقع فى مثل ماوقعنا فيه من إضاعة الوقت فى كثير من العلوم والدراسة التى

لم تفدنا فى حياتنا، وإذا كنت تريد أيضاً أن تجعل الدراسة والتعلم عملا غير شاق أو مكروه من نفسك، فاعتن بتربية تلك الملكة بدافع من نفسك، مع ما استطيعه من ارشادك وبما يستطيع واحد من معلميك ارشادك اليه

وتأكد أن الرجل لا يكون رجلا عالما راقياً إلا إذا كان فى رأسه عقل يصلح لكل علم، ولكل عمل ولكل وظيفة، ولكل ظرف وحال . وهذا العقل الراقى الواسع الذى يجعل صاحبه مستعداً لمقابلة الحوادث، وتصريف الأمور، وحل المشكلات، لا يربى بحفظ اسماء البلدان والانهر، ولا بأسماء الملوك والقواد، ولا بالاعراب والانشاء، ولا برطانة اجنبية، أو تلاوة عبارات أدبية أو علمية أو فلسفية

هذا العقل ينمو من التفكير والتمعن والنظر — كما قلت لك — إلى جميع مايقع تحت العين أو الحس، نظر المفكر المتأمل الملاحظ، المستنتج، المستفهم، المتصور. فاذا مررت فى الطريق ورأيت عربات الترام تسير كما ترى، ففكر فى شكلها أولا، وفى نظام الموظفين المنوطين بصرف التذاكر والتفتيش ثانياً، وفكر فى الوسائد الخشبية التى وراء ظهرك، ولماذا وضعت؟ وكيف تتغير من جانب الى آخر؟ وفكر فى الخشب الذى صنعت منه العربات، ومن أى بلاد أتى، والألوان التى صبغ الخشب بها. وفكر بعد ذلك فى القوة التى تحرك هذه العربات، وكيف تسيل فى الاسلاك والآلات، وكيف تنير المصابيح وهلم جرا . . وهلم جرا . .

ولا تتصورن يابنى أننى أريد منك أن تعرف حقيقة كل شىء من هذا القبيل وطريقته العملية، او صناعته الفنية . . وإنما اريد منك ان لاتمر

على مايقع تحت نظرك مرور الاعمى ، وانت ذو عينين مبصرتين ! !

اسأل من تظن أنه أعرف منك إذا عجزت عن معرفة شيء ، لماذا هذا الشيء طويل ، وهذا قصير وهذا أحمر ، وهذا أخضر . ثم إذا ارتقيت فى الفكر ، وتقدمت فى السن ، وتوسعت فى العلم ، فاجعل هذه الطريقة الابتدائية قياساً لك فى الاستفهام من المعلم أو الصاحب أو الأخ

هـذا هو الذى اريده بالتمرين العقلى الذي يربى فيك تلك الملكة العالية التى هى مفتاح السعادة ، وطريق العلم ، وباب الحكمة

ومن كان معلما أو مربياً أو والدا فليجعل ذلك غاية له

أنار الله يابنى بصيرتك وشرح للعلم صدرك إنه على مايشاء قدير

الرسالة الرابعة

ولدى العزيز

لاأريد فى هذه الرسالة أن أنصحك بالمواظبة على دروسك والالتفات إلى معلميك فى أثناء القائهم الدروس عليك وعلى رفقائك فى المكتب . ولا أقصد أيضاً ان احثك على مسابقة اقرانك لتكون دائماً موضع ثقة وعناية اساتذتك ، فان مثل هذا النصح مألوف معروف ، بل يكاد يكون العمل به امراً طبيعياً وصفة غريزية فى النفس ، وما رأيت تلميذاً قد استفاد من نصح بهذه الطريقة ، او من هذا النوع من الحث والارشاد ، ولـكن الذى أريد أن أوجه نظرك اليه بنوع خاص هو أمران :

أولهما — أن توجد بينك وبين اساتذتك جميعاً لافرق بين معلم الخط ، ومعلم اللغة ، عاطفة ميل وانعطاف وشعور بأنك من الواحد منهم فى منزلة الابن من ابيه . وقد دلتنى خبرتى فى التعلم والتعليم ، انه حين توجد تلك العاطفة ، وذلك الشعور بين التلميذ واستاذه ، تخف متاعب الاثنين فى الفهم والتفهيم وتوجد عند التلميذ ، من جراء ذلك الميل ، رغبة شديدة فى تلقف ما يلقيه عليه المعلم ، وشغف كبير بالاصاخة له والاستفادة منه . وكذلك يشعر الاستاذ نفسه دائما بأن هذا التلميذ جزؤ من متممات وظيفته ، فلا يستريح له خاطر الا اذا تأكد ان هذا التلميذ ، الذى يشعر نحوه هذا الشعور ويحس تجاهه

هذا الاحساس ، قد فهم ووعى ما القاه من الدرس والايضاح

ونحن يابنى مهما كنا، وكيفما كانت وظيفتنا، وكان مركزنا وعملنا، اناس على الفطرة الطبيعية لا نشذ عنها مطلقا . فالمعلم ، مثلك ومثل كل انسان ، ذو عاطفة انسانية يحس فى عمله ، كما يحس كل فرد فى معاملته لشخص مثله، فهو مهما « قبض على قلبه بيده » ، وكان مع تلاميذه غير متحيز ولا مميز الواحد على الآخر، لا يستطيع ان يمسك قلبه دون الانعطاف بنوع خاص، والحنان بصفة مخالفة للمعتاد، نحو عدد من التلاميذ الذين يظهرون المحبة والميل اليه، بالاصاخة له، وبالترديد لعاطفة الرغبة فى تسهيل عمله. ومتى نمت فيه تلك العاطفة، ووجد ما يماثلها عند التلميذ، وجد بين الأثنين سيال الكهرباء النفسية، حتى لقد ينساب العلم من عقل المعلم إلى عقل تلميذه، انسياب الماء فى الانابيب من المرتفعات حتى يتساوى المستوى بينهما

ولا غرابة فى ذلك لأن الحب على أنواع شتى، ودرجات مختلفة، فهو بين الوالد وولده، والأم وابنها، والعاشق ومعشوقه، والصديق وصديقه، والمعلم وتلميذه، واصحاب الصفات المتشاكلة المتماثلة بعضهم مع بعض — عاطفة تفتق الذهن، وتوجد الحنان، وتوسع دائرة الخيال، وتصفى الفطرة الانسانية. والذين بالغوا فقالوا «الله محبة» ! و«الحب رابطة الوجود» معذورون فى خيالهم. فاذا كان من حظك أو كان من عملك ، أن تتمكن من بعث نور هذا الحب فى قلب معلمك، واستطاع هو بذكائه ولطف مزاجه، ورقة حاشيته، أن يبعث فى صدرك وصدر رفقائك التلاميذ أثراً من نور تلك العاطفة، فقد خف تعب التعلم على التلميذ ، وسهل التعليم على الأستاذ

وقد اشتغلت بالتعليم زمناً قصيراً فكنت ، قبل أن ابدأ فى القاء دروس ، أعامل التلاميذ بلطف ووداعة، وابعث فيهم الثقة بى ، والرغبة فى حضور درسى، واتفرس فى وجوههم عاطفة الميل نحوى واطارحهم الحديث الشخصى ، وابش فى وجوههم حتى أشعر أنى قد ملكت أزمة أفئدتهم، وأشعر كذلك بعاطفة الميل منى اليهم — وعندئذ اشتغل بالقاء الدروس فلا أمل منها ولا أضيق صدراً بصناعة التعليم — وهى على ماهى معروفة به من المشقة . وكنت أستطيع أن اتم المقرر عليهم فى نصف المدة المقررة .

وإتماما لفكرة وجود عاطفة الحب بينى وبين التلاميذ كنت إذا بدر من بعضهم سوء أدب أو اهمال او معاكسة أو ما اشبه ذلك ، مما يقصده التلاميذ لمضايقة معلميهم، أو لكسل منهم، أو لرغبة بريئة فى اللعب والمهاترة، — أقول كنت إذا رأيت شيئاً من هذا، أشتد فى معاملة بعض المسببين له وأقول للبعض الآخر: « انى لا اصدق أن مثلك فى ذكائه وأدبه وميله الىّ يرتكب شيئاً من هذه الصغائر » ثم أتظاهر بالغضب منهم أجمعين وأخاطبهم كأنى واحد منهم كبر علىّ أن أجد منهم ماوجدت أو أسمع ماسمعت ، وهم كأصدقائى ، مع انى كنت إذ ذاك كوالد لاكبرهم فى السن فكنت وقد أيقظت منهم عاطفة الحب والاخاء والصفاء ، أجدهم قد تأثروا وربما ذرف بعضهم الدمع وتألبوا على ذم المسبب لذلك، ثم يأخذون فى استرضائى حتى اظهر لهم أننى قد صفحت وأننى أحبهم أجمعين، وانى لذلك الحب والحنان قد عفوت عن الخاطئين منهم.

وأؤكد لك يابنى انى كنت بهذا أكسب محبتهم، وكنت لا اكلفهم

بعمل إلا أدوه على غاية من الكمال، وحتى لقد كانوا يترقبون الساعة التى كنت احضر فيها عندهم بفارغ الصبر. وأذكر أنني استطعت أن أصلح من اخلاق كثيرين منهم، وأوقظ الأستعداد الفطرى للعلم فى عقولهم بعد أن كان قد يئس منهم آباؤهم ومعلموهم . وما نتج كل هذا إلا بايجاد عاطفة الميل والحنو من جانب التلميذ نحو معلمه ومن جانب المعلم نحو تلميذه .

أما الأمر الثانى الذى أريد أن أوجه نظرك اليه فهو أيضاً مرتبط بعاطفة الحب ، ولكنه ، فى هذا النظر الثانى ، موجه إلى العلم نفسه لا الى الاساتذة

لا يمكن لطالب علم أن يستفيد منه فائدة ثابتة ، ولا يمكنه أن يتشبع من أصول العلم وتتأصل فيه بذوره، فتنمو وتتفرع، إلا إذا مال إلى ذلك العلم ميلا صحيحاً . فاذا كان الكثير مما نتعلمه فى المدارس لا يبقى فى أدمغتنا إلا ريثما نؤدى الامتحان فيه ..

وإذا كنا نجد فى تعلم العلوم وحفظها ومعالجتها شيئاً من التعب والملل فما ذلك فى الحالتين ، إلا لأننا لم نمل بقلوبنا إلى تلك العلوم

لا انكر عليك أن الناس يختلفون فى الميل إلى تلقى العلوم باختلاف أذواقهم ومشاربهم، وأن هذا الاختلاف هو الذى يوجد الميل إلى علم دون آخر، ويوجد ملكة الذوق فى واحد وبالعكس من ذلك فى آخر

ولا أنكر عليك ايضاً أن التعلق بالعلم فطرة طبيعية غير اكتسابية.. أريد بذلك أن الذهاب إلى المدرسة بعاطفة من الحب لتلقى الدروس والاشتغال بها ، خلق لا يعلم ولا يكتسب بالنصح والحث والارشاد

ولكنى فى هذا وذاك أريد أن أدلك على الطريقة ، وإن شئت فقل الوسائل ، التى تحببك فى العلوم على اختلاف انواعها بوجه عام، وفى بعضها أو فى واحد منها بنوع خاص، لأنك بغير ذلك الحب لا يتيسر لك النجاح فى جميعها، بصفتك طالباً، عليك واجب تؤديه نحوها للفوز فيها عند الامتحانات على الاقران

فأنا مع اعتقادى بعظم تأثير الفطرة الطبيعية علينا جميعاً من حيث الميل إلى شىء ، أو النفور منه لا أعترف مطلقاً بأنه ليس فى مقدرة كل إنسان أن يرقى فى نفسه ، بالمعالجة وعدم الاندفاع مع الخيال، ملكة الرغبة فى جميع العلوم ، خصوصاً إذا صحب هذه المعالجة قليل من التأمل والحكمة : كأن يقول الطالب فى نفسه : أنا مجبور بمقتضى النظام الذى قضت به البلاد التى أنا فيها، وبمقتضى الخطط التى وضعت للتربية والتعليم والامتحانات والشهادات، وبما يرتبط بها من تقدير الناس بعضهم لبعض، أن أدرس ذلك العلم وأن أجيده لأحصل فيه على درجات كافية. وأنا لا أستطيع أن أصل إلى ذلك وأنا كاره لذلك العلم ، نافر منه ، فلا بد أن اتفاهم معه ، وأصادقه ما دمنا على سفر معاً ، حتى يتاح لى أن أسير فى طريق غير طريقه ، واتركه لغيرى ممن يحب مصاحبته

تقول وكيف يمكن التفاهم والميل ؟ اجيبك ان ذلك أمر سهل . أولا لا توسع دائرة الكراهية فى نفسك لفن من الفنون ، واجمع حواسك على أنه ضرورى لك ، واخلق لخيالك محاسن فيه ـ وكل علم فيه من المحاسن ما لا يحتاج لارغام الخيال وتكلفه. وعليك ان تضيف الى الواسطة فى الحب،

صفات المعلم ومحبتك لشخصه ولطفه وأدبه كما أبنت لك فى الجزء الأول من هـذا الخطاب

ومن الوسائل التى تحبب لك علما لا تميل نفسك اليه، محادثة المحبين له، ورغبتك فى مجاراتهم، وشعورك بأنه يجب عليك أن لا تكون أقل منهم منزلة وكفاءة فى ذلك العلم

ومن الوسائل أيضاً أن تطلع، ولو اطلاعا سطحيا، حتى من نوع التفرج، على مطولات ذلك العلم، فان المطولات تكون افسح للخيال مجالا، وقد تؤدى بك الى الشعور بالميل الى ذلك العلم

والخلاصة يابنى: أنك لا تستطيع ان تنجح فى تلقى العلوم، ولا تستطيع ايضاً ان تمضى زمن تعليمك باللذة والسرور والسهولة، الا اذا كنت محبا للعلوم، مقبلا عليها، غير مسوق للتعلم بالعصا والضغط أو الخوف. والله المسؤول ان يجعلك ممن يحبون العلم لذاته، فان محبة العلم تخفف ثلاثة ارباع المشقة فى تلقيه وممارسته

الرسالة الخامسة

ولدى العزيز

أحب قبل أن أبين لك أهمية التمرين البدنى، بعد أن وضحت لك طريقة التمرين العقلى، أن أضع نصب عينيك الغاية التى هى منتهى الآمال لكل إنسان فى حياته، حتى إذا تصورتها تمام التصور، وعرفت ما فى طريق الوصول اليها من المشاق والمتاعب والجهاد الدائم، أمكنك أن تأخذ العدة لها وأن تقدر قيمة ما أعرضه عليك فى هذه الرسالة، حق قدره فلا تتوانى فى القيام به، ولا تهمل فى الحرص عليه

إذا أنا دخلت فى موضوع غاية الانسان فى الحياة، أو ما هى افضل الغايات التى يجب أن تحث اليها مطايا الآمال، اتسع معى مجال القول وربما دخلت فى بحث فلسفى ليس هذا محله، فضلا عن أنه ليس مما تتفق عليه العقول البشرية من وجهة النظر، بنسبة ما يتولد فى النفوس من حب المطامع وتوسيع دائرة الطموح إلى المعالى والمجد الفاخر. وقد كتب كثيرون من الكتاب الرسائل المطولة والأسفار الضخمة فى أساليب النجاح فى الحياة وما أظن أنها أفادت الناشئين إلا قليلا، وان كان فيها ما يدل على أن كاتبيها قد خبروا الحياة خبرة واسعة، وقد سبق لى منذ زمن طويل أن وضعت رسالة مطولة فى موضوع النجاح فى الحياة ونشرت فى كتيب اسمه «كلمات

فى سبيل الحياة » فاذا كنت تفضل الاطلاع على ماخطه قلم ابيك وما قرره فكره فى هذا الباب فاقرأها بأمعان ففيها الكفاية[1]

أما هنا فأنى أريد أن أنحو طريقاً جديداً فى بيان الأهمية العظمى التى تترتب على عنايتك بأمر صحتك وتقوية جسمك ورياضة بدنك فى طريق فوزك فى حياتك . الأمر الذى جعلته نصب عينى فيما أنصحك به فى هذه الرسائل ، والامر الذى هو محط الرحال ، وغاية الآمال

كلنا يابنى على سفر فى هذه الحياة منذ الساعة التى نفتح فيها عيوننا لنور هذا الوجود ، إلى الساعة بل اللحظة التى نقفل فيها احداقنا عنه، وعندها يكون كل فرد منا، قد قطع المرحلة التى خصصت له، طويلة كانت أو قصيرة

فمنا من يقطعها ـ نسبياً ـ براحة واطمئنان وسلام ، ومنا من يقطعها بمشقة وحذر وآلام ، ومنا من يوفق الى اجتيازها فى ساعات صفو دائم ، ومنا من يجتاز مفازته بالكدر المتواصل المتلاحم . ومنا من تقوده العناية إلى السير، لقطع مرحلته المخصصة له، بين حدائق وجنات وأعناب ، ومن تدفعه الى السير فى أشواك وأدغال ، ووهاد ونجاد ، وجبال وهضاب . ومنا من يقطع مرحلته فى جو هادىء ونسيم عليل ، وريح بليل . ومن يقطعها فى زعازع وأعاصير ... وهلم جرا

فالذى يجب أن يكون نصب عينيك، وهدف سهمك ونهاية مأربك، هو أن تقطع مرحلتك، التى قدرت لك، فى راحة وسلام، وان تتخير السبل

---

(١) نفدت كل نسخ هذا الكتاب ولهذا رأيت من الواجب أن أعيد طبع هذه الرسالة التى أشرت اليها فى ختام هذه الرسائل

التى تمر فيها على ما تطمئن اليه نفسك، ويصبو اليه فؤادك من المطامع والآمال. وأعنى بذلك أن غايتك، ان كنت من العاقلين، يجب أن لا تخرج عن أمرين: أولهما راحة النفس، وثانيهما ادراك المعالى

فاذا علمت أنه لا يمكن الحصول على واحد من الأمرين — وكلاهما ضروري لكل ذى نفس سليمة كريمة — إلا باعداد جسمك فى صحة قوية قادرة على حملك فى سيرك لادراك غايتك ، أمكنك أن تقدر قيمة التمرين البدنى الذى جعلته موضوع رسالتى هذه

كما يأخذ المسافر قبل سفره عدته التى يعتقد أنها ضرورية لحاجاته من حقائب وملابس ونقود أو مأكل أو مشرب أو غطاء أو فراش أو ذخيرة أو سلاح ، كذلك يجب عليك قبل أن تبدأ فى سفر الحياة أن تأخذ العدة اللازمة له .

وفى نظرى أن الصحة وتقوية الجسم هما أهم ما يلزم الاعتماد عليه والتدرع به . وقد يضع كثيرون التربية العقلية قبل الجثمانية فى اعداد الناشئين لقطع مرحلة الحياة، ولكنى اعتقد أن التربية الجثمانية أولى بالتقديم خصوصاً وان البدء فى اعدادها منذ الصغر ضرورى ، لأنه إذا فات وقتها ، لا يسهل الحصول عليها ، فى حين أن التربية العقلية ـ كما ظهر فى كثير من الرجال النابغين ـ قد يبدأ فيها بعد سن متقدم

ونحن يابنى نعيش فى عصر رفاهية، وتأنق فى المأكل والملبس، وضيق فى المسكن ، وبعد عن الطبيعة النقية، وافراط فى الملذات، واندفاع فى تيار ملاهى هذه المدنية مما يعرضنا لأمراض متنوعة شديدة وخطرة لا تعد

ولا تحصى

ولهذا كانت العناية بالصحة وتقوية الاجسام منذ الصغر ضربة لازب، بل تربية ضرورية للوصول إلى الغاية من الحياة — تلك الغاية التى جمعتها لك فى كلمتى « راحة النفس » و « أدراك المعالى ». وأنا والدك قد كان من حظى أن قضيت زمناً من دور حياتى الأولى فى المعيشة الخلوية والرياضة البدنية مما لا أظنه يتيسر لك إلا بارادتك وبمجهوداتك، ومع ذلك أؤكد لك انى لا أجد فى سبيل تحصيل علم من العلوم، أو الاطلاع على معارف عامة أو خاصة، مما أعتقده نافعاً لى ومريحاً لنفسى فى حياتى، مثل ما أجده من الصعوبة فى حفظ الصحة اللازمة لأدراك الأمل وقطع مرحلة الحياة

فنصيحتى لك الآن هى أن تدأب على العمل لتقوية بدنك بالألعاب الرياضية المختلفة ويسرنى أن المدارس اليوم قد جعلت تلك الرياضة الجثمانية جزءاً من وظيفتها، ولكن مايؤدى فى هذه المدارس قليل جداً بالنسبة لما يلزمك.

يجب عليك أن تشترك فى جميع الألعاب والرياضات الخلوية، فلعب كرة القدم الانكليزية مفيد لك جداً فى تقوية عضلات الجسم خصوصاً عضلات الأرجل والأقدام، وكذلك الجرى والوثب، واما الجزء الاعلى من الجسم، حيث الصدر والذراعان والأيدى والرقبة فتلازمه حركات « الجمباز » على « المتوازيين » و « العقلة » وما شابه ذلك

وانك يابنى لاتفرط مطلقاً فى الانهماك فى الألعاب الرياضية المقوية للجسم مهما وصل بك الأمر الى جعلها الأساس الأول فى حياتك الأولى،

لأن كل ماتدخره منها فى صغرك، ينفعك كثيراً كثيراً فى كبرك، وستأتى عليك أيام كثيرة، إذا مد الله فى اجلك، تذكر فيها هذه النصيحة، وتقدر ما للصحة وتقوية البدن من الفائدة العظمى فى تمهيد الطريق لفوزك فى الحياة.

كل عمل سيكون من حظك أن تقوم به فى هذه الحياة، سواء كنت جنديا فى الحرب، أو كاتباً فى الأدب، أو موظفاً فى الحكومة، أو محامياً أو طبيباً أو مهندساً ـ لاتقدر على تأديته كما تحب انت لنفسك، إلا إذا كنت فى صحة جيدة وقوة بدنية

وليست العناية بالتربية الجثمانية قاصرة على مايلزمك، وانت فى دور طفولتك وفتوتك، من التمرين والرياضة، ولكنك ستكون فيما بعد من أدوار حياتك المقبلة مكلفا اجتناب أمور شتى واتباع خطط محددة للمحافظة على صحتك، والعناية بسلامتك، ولكن اعلم علم اليقين أن ما تحرزه من قوة الجسم وصحة البدن فى صغرك، يعوض عليك بعض ما تهمل فيه من الواجبات فى كبرك، وربما شرحت لك ماأريده بهذه الاشارة فى مقام آخر

العقل الحكيم فى الجسم السليم — قضية بديهية تلوكها الألسن وتعترف بها المدارك، ولكنها واحدة من هاتيك القضايا الصحيحة، البديهية، النافعة، الضرورية، التى ترى الناس لايعملون بها ولا يكادون يدركون حقيقتها البارزة، الصامتة الناطقة، إلا إذا خالفوها أو نبذوها، لأنها كالغرض المقصود منها، وهو الصحة: «تاج لايراه إلا المرضى»

وسلام عليك وتوفيق الله لك..

الرسالة السادسة

ولدى العزيز

فى رسائلى السابقة اليك وضعت لك أساسات التربيـة والتعليم من الوجهة العامة، أى من حيث حب العلم، وحب المعلم، وتدريب العقل، وتمرينه، وتقوية الجسم وتمتينه. والآن أريد أن أوجه اليك فى هذه الرسالة ومايليها شيئاً من النصائح والأرشادات فيها يختص بأجزاء العلوم والمعارف التى يجب أن تقبل عليها وتتوسع فى دراستها، وأعرض عليك آرائى فى أنواع هاتيك المعارف، وكيفية الاستفادة منها، على الطريقة التى آراها نافعة لك فى مستقبلك، مذللة للعقبات التى تقف فى طريقك عند جهادك فى الحياة المقبلة عليك. فلقد علمتنى تجاربى، كما سبق لى القول فى إحدى رسائلى الماضية، أن الكثير مما نتعلمه فى المدارس لايفيدنا فى حياتنا، ولهـذا وجب علىّ أن انبهك إلى ضرورة الأهتمام الشديد بالقليل من هـذه المعارف التى اعتقد بالتجربة الشخصية وملاحظة شؤن الغير، أنه أنفع لك من سواه، وأثبت معك فى مواطن الجلاد والجهاد الدنيوى

وليس مما يحتاج أن أوضحه لك أنك مضطر بحكم العادة، ونظام التعليم، ونماذج الامتحانات، وواجب الحصول على الشهادات، أن تقوم بتحصيل علوم شتى قد لايكون من حظك فى المستقبل أن تستفيد منها

شيئاً، حتى ولا فى ظرف واحد من ظروف حياتك وأعمالك، ولكنك مع هذا مجبر على الاشتغال بها، وقضاء أوقات وبذل مجهودات فى سبيل تحصيلها. وانى وحقك لو كنت فى سعة من العيش تمكننى من أنفق على تعليمك وتهذيبك كما أريد وكما يجب أن تكون، لما احوجتك إلى اتباع هذه الخطط المطروقة فى التعليم، بمعنى أننى كنت أجود بالمال مهما كثر لأمكنك من تحصيل العلوم النافعة فى الحياة، سواء كان ذلك هنا، أو فى أى بلد من بلاد العالم، وأسهل لك اتقان اللغات، التى هى فى نظرى، أهم مايجب عليك الاهتمام به وأنت فى سن التعلم

نحن يا بنى فى بلد غريب فى مركزه، وأعجوبة فى ظروفه واحواله فهو قطعة من افريقية، كما هو قطعة من أوروبا. بل هو إذا شئت كل اوروبا. ولا مبالغة فى هذا، فقد قضت عليه ظروف الزمان، أن يكون ملعباً لأوروبا وسوقا رائجة لأهلها، وطريقاً بين الشرق والغرب وصار من اللازم على كل ناشىء مصرى يريد خدمة بلاده ورقى أمته، ويتطلع للصعود إلى مراتب المجد فى هذه الديار، أن يتربى تربية خصوصية تجمع بين المعارف الشرقية والآداب العربية والعلوم الغربية، مع التمكن من كثير من اللغات الأوروبية.

بمعنى أن الناشىء المصرى الذى يريد أن ينبغ ويمتاز على الأقران مكلف باجهاد نفسه للحصول على اكثر مما يكلف به ناشىء مثله فى بلد من البلاد الأوروبية، فان الانكليزى فى انكلترا مثلا، قد يستطيع أن يصل إلى قمة العلى، ويتسنم سنام المجد، وهو لم يتلق من العلوم غير فرع واحد منها، أو يكتفى بالحصول على معلومات عامة فى جميع الفروع المعروفة،

وقد لا يرى نفسه مرة مضطرا أن يتقن لغـة أخرى غير الانكليزية ، فى حين أن المصرى مسؤول أولا أن يتقن لغته العربية ، وهى تكاد تكون لغة أجنبية بالنسبة له ، لأنها ليست لغته التي يتكلم بها مع أمه وأبيه ، ولا يكتفى فيها بدراسة النحو والصرف وعلوم البلاغة على الوجه العام، بل يلزمه، إذا كان ممن يريدون النبوغ والميزة على الأقران، أن يقف على تاريخ العرب قبل الأسلام وبعده ورقى اللغة العربية فى عصورها الأولى فى أيام المدنية الأسلامية، أى فى عصر بنى أمية وبنى العباس، ورقيها كذلك فى عصر المدنية الأندلسية ، ويقف على تاريخ اللغة فى أدوار انحطاطها بعد ذلك فى عصور مختلفة، ونهضاتها فى أوقات متقطعة، فى فترات من الزمن، ثم يمارس الكتابة فيها ويقارن بين شعرائها وادبائها فى العصور المختلفة ليكون حقيقة أديباً عربياً .

ثم يتحتم عليه أن يتعلم لغة أوروبية إما الفرنسية وإما الانكليزية تعلما تاما ويقف على آدابها، ويطلع على أقوال شعرائها وكتابها المتقدمين منهم والمتأخرين ، ويجيدها كلاماً وكتابة ما استطاع لذلك سبيلا ، ويحسن به كذلك أن يتمعن فى أقوال أدبائها ويقارنها بأقوال كتاب العربية وأدبائها

وبعـد أن يجيد العربية وإحدى هاتين اللغتين ، يجب عليه أن يتعلم ويحسن الكلام والكتابة باللغة الثانية بمعنى أن العارف باللغة الفرنسية فى هذه البلاد يكون ميدانه أفسح، وطريقه أسلك، إذا هو تعلم اللغة الانكليزية قراءة وكتابة وأحسن الحديث واللهجة فيها، وكذلك العارف بالانكليزية فهو كذلك يجد جواد العمل والفوز فى الحياة اسلس قياداً إذا هو تعلم الفرنسية وأحسن الحديث بها والكتابة أيضاً

وإذا هو اتقن هذه اللغات الثلاثة يشعر من نفسه فى أوقات وظروف شتى أنه فى حاجـة إلى التكلم والكتابة بلغات اخرى مثل التركيـة مثلا وهى لغـة الدولة العثمانية التى يرتبط معها بروابط دينية واجتماعية . وإذا كان من أهل الأدب، وعشاق الحقائق، والظامئين إلى الوقوف على كثير من المعارف الشرقية عن العرب أو الفرس ، فانه يشعر عند ذلك أن معرفة اللغة الالمانية من الضروريات للوقوف على ما كتب ووضع وطبع، من آثار العرب وعن مدنيتهم ، من المباحث الراقية العويصة الدقيقة فى لغة الالمان . وإذا كان من محبى الاطلاع والسياحة ، حبب اليـه معرفة اللغة الايطالية الحديثة للوقوف على كثير مما كتب ويكتب فى هذه اللغة الحلوة اللذيذة، وقد تفيده إحدى هذه اللغات فى ظرف قد يكون سبباً لفوزه فى الحياة فوزاً مبيناً

لهذا وذاك كله، بعد تجاربى فى الحياة، رأيت أن أوجه نظرك يا بنى إلى تعلم اللغات والعناية بأمرها، فانك ان وفقت إلى تعلم لغات كثيرة فقد وضعت لنفسك الحجر الأساسى فى بناء صرح مجدك المستقبل

وحتى إذا كان من حظك أن لا تحتاج إلى معرفة لغة من اللغات فى سبيل تحقيق آمالك ومطامعك فى الحياة، فانك ستجد لذة لا تدانيها لذة فى الاطلاع على ما دون من الآثار، وما وضع من الآداب والمعارف والاسرار، فى كثير من هـذه اللغات الأوروبية. فما ألذ الاطلاع على ما كتبه جوت وشيلر، من شعراء الألمان بلغته الأصلية ، وما احلى قراءة شكسبير وملتون وجونسن وما كولى باللغـة الانكليزية ، وما الذ الاطلاع على اشعار

دانتى باللغة الأيطالية، والاطلاع كذلك على كتابات روسو وفولتير وهوجو وغيرهم فى اللغة الفرنسية

وإذا اشتغلت بالتاريخ أو بالأدب أو بالسياسة أو بالحقوق أو بالفلسفة فانك تجد الكنوز الثمينة فى كل لغة من هاتيك اللغات بل أنت لا تستطيع أن تكون عالما بتاريخ الأمة العربية وأصول اللغات السامية التى تتفرع منها لغتك العربية، ولا تكون واقفاً على موسوعات العلوم العربية، وما الف فيها من الكتب والرسائل فى أيامها المشرقة الزاهرة، إلا إذا امكنك أن تطلع على مادونه علماء الألمان المستشرقين وغير المستشرقين، من مباحثهم العويصة فى هذا الباب

والخلاصة يابنى أن معرفة اللغات، التى ذكرتها لك، تفيدك فى حالتى الطموح إلى المجد أو الاشتغال بالعلم، للفائدة واللذة والنبوغ. ولهذا سأشرح لك فى رسالتى الآتية الطريقة التى تستطيع بها أن تتعلم الكثير من هذه اللغات بالسهولة فى دور شبابك قبل أن تستعصى عليك، إذا تقدمت فى السن، وانغمست فى تيار الحياة العملية

واستودعك الله وأدعو لك بالفوز والفلاح !

الرسالة السابعة

تعلم اللغات

ولدى العزيز

تعلم اللغات والتمكن من أصولها ونحوها وأدبها، ليس مما يعتمد فيه على حدة الذهن وصفاء القريحة — وإن كان للذاكرة أثر كبير فى تسهيل معرفة اللغات — وإنما يعتمد فى ادراك اللغات، وحفظ كلماتها، وتعليق تعبيراتها فى الذهن، للتكلم بها أو الكتابة فيها — على المجهود والمثابرة والعناية والاشتغال الصحيح بها

اللغات لا تؤخذ اغتصابا، ولا تتقن لهواً وتسلية كبعض المعارف والفنون التى تميل اليها النفوس، وتنصرف لها العاطفة الفطرية، كآداب اللغة، وقرض الشعر، وعلم التاريخ، والعلوم التى يعتمد فيها على التصورات والذكاء والتعقلات، كالفلسفة، وعلوم الاجتماع. فانه إذا تمكنت فى النفس عاطفة الميل لعلم من هذه العلوم، فان العاطفة نفسها كافية للحث على مداومة البحث، لما فيه من اللذة. حتى لقد يكون الأشتغال بها لهواً وتسلية إلى أن يجد الانسان نفسه فى كثير من الأحوال، ملما بأطراف هاتيك العلوم، بل ومبرزاً فيها، دون أن يشعر بمجهود التحصيل فيها.

أما تعلم اللغات فيحتاج إلى تعب وعناء فى زمن التعلم، فلا يتمكن

طالب من التمكن من لغة ، إذا هو لم ينصرف اليها بقلبه ويجعل نصب عينه غرض التمكن منها فيبدأ أولا بدرس نحوها ووضع أساس ذلك نقشاً كنقس الحجر فى ذهنه ، ثم يشتغل بمطالعات خفيفة فى كتبها وتقييد كل عبارة من عباراتها البليغة أو تعبيراتها المألوفة ، أو أمثالها المضروبة ، فى مذكرة صغيرة يحفظها فى جيبه ليداوم الاطلاع عليها ، والرجوع اليها ، فى كل وقت ، سواء فى الدرس أو فى زمن النزهة أو فى السفر أو فى الاقامة

قلت فى رسالتى الماضية انى أريد أن أرسم لك الخطة التى يجب أن تضعها نصب عينيك للتمكن من تعلم اللغات الكثيرة التى أشرت اليها ، وبرهنت لك على أنها ضرورية لك للفوز فى مضمار الحياة المصرية المستقبلة. والآن أنا عامل بذلك فأقول :

ستبدؤ بتعلم اللغتين الأساسيتين العربية والانكليزية فى مدرسة تمكنك من كلتيهما أحسن التمكن فى وقت واحد فعليك إذن ، حين الانتقال للتعلم الاعدادى ، أى حين تبدأ بتعلم اللغة الفرنسية أن لا تتلقاها بتساهل وقلة إهتمام اعتماداً منك على أنها لغة ثانوية كما كان ذلك هو شأننا فى المدارس المصرية ، لما كنا نتلقى اللغة الفرنسية لغة ثانوية ، بل يجب عليك وجوباً حتمياً أن تقبل على تعلم هذه اللغة بشغف واهتمام أى أنك تتفرغ بنفسك لتلقيها وحفظ أصولها وقواعد نحوها بالعناية اللازمة ، وان لا تقصر إهتمامك بها على ما تتلقاه من الدروس فى المكتب فان ذلك يكون دليلا على أنك مثل سواك لم تستفد من هذه النصيحة ولم تتفوق على أقرانك العاديين من الطلبة بشىء ، أو أن ليس فيك أثر من نار النبوغ التى تظهر فى

عيون الذين يريدون الفوز على الأقران

واعلم وفقك الله يابنى ، أن صعوبة اللغة الفرنسية فى مبدإ تعلمها فقط لأنها لغة ذات قواعد كثيرة وأصول متينة تظهر صعبة المراس شديدة الشكيمة ، حتى إذا مارسها الطالب ، وصبر صبراً جميلا على مزاولتها ومعالجة تصريف الأفعال القياسية والشاذة والضمائر الشخصية وغيرها ، ودقق النظر فى توقيع تعبيراتها النحوية فى الأمثلة والتمرينات التى يضعها الأساتذة والتى توضع عادة فى كتب النحو « الاجروميات » وغيرها ، فانه يسهل عليه كثيراً أن يتلقى هذه اللغة فى مستقبل أيامه ، بل انى أؤكد لك انك إذا استطعت أن تضع فى ذهنك أساس مبادىء النحو الفرنسية من تصريف أفعال وصحة التفريق بين المذكر والمؤنث ووضع الضمائر والظروف فى مواضعها الصحيحة ، أمكنك بسهولة أن تسير فى معرفة اللغة الفرنسية كتابة وكلاما سيرا سريعاً

وعليك فى خلال هذه الحال — أى حين تتلقى الفرنسية بمثابة لغة ثانوية — أن تكثر من الاطلاع على حكايات قصيرة وفكاهات خفيفة فى الكتب الفرنسية التى تقع تحت نظرك ، وان تتخذ لك كراسة صغيرة « مذكرة » تقيد فيها كل عبارة تحلو لك فهما وتعبيراً وإشارة ، وتقيد بجانبها معانى الكلمات التى تجدها فى هاتيك العبارة الحلوة بترجمتها إلى العربية أو مايقابلها بالانكليزية وهو الأسهل . ثم لاحظ أن هذه اللغات الأوروبية متقاربة جدا وفيها كلمات كثيرة متشابهة ، ان لم تكن فى الفروع ففى الأصول منها ، فاذا عثرت بكلمة فرنسية لم تعرفها فابحث عن معناها فى قاموس

فرنسى انكليزى تجد ما يقابلها بالانكليزية، فان لم تجد بينهما تشابها يساعدك على تعليق الكلمة الفرنسية فى ذهنك ، فلا تقف عند معنى الكلمة التى كنت تبحث عنها بل انزل إلى أصولها ومشتقاتها فى نفس القاموس الذى تبحث فيه

وهنا استطراد لا بأس به — ذلك هو أنك لا تستعمل القواميس الصغيرة إلا مضطراً . ابحث دائما عما تريده فى القواميس الكبرى ، سواء كان ذلك فيما تبحثه عن كلمة من لغة إلى لغة أخرى أو عن لغة إلى نفسها. إذا استطعت أن لا تبحث عن كلمة عربية إلا فى قاموس لسان العرب فلا تبحث فى سواه ، وعلى هذا القياس فافعل فى الانكليزية والفرنسية. والسبب فى ذلك يابنى ظاهر لمن يجرب ويقارن . لأنك تجد فى القواميس المطولة مشتقات الكلمة وما يتبعها من التعبيرات ووقوع هذه الكلمة فى عبارات مشهورة لكتاب فطاحل وفلاسفة عظام وسياسيين مفكرين وشعراء نابغين وما اشبه ذلك ، فتجد انك كسبت مكسباً مزدوجا ، أولا بمعرفتك معنى الكلمة ـ معنى يثبت فى ذهنك على مرور الزمن الطويل بما جمعته حولها من المعلومات والمشتقات والتصريفات ، بحيث توجد الأسباب المساعدة للذهن على حفظ هذه الكلمة ورسوخها بل حفرها على الذاكرة حفراً أبديا . وثانياً تجد فى ما عثرت عليه من معنى الكلمة التى كنت تبحث عنها العبارات البليغة التى اشرت لك اليها ، فتحفظها وتتلذذ بالاطلاع عليها ، والاستشهاد بها، فيما تكتبه من الموضوعات الانشائية أو الخطابية أو الكلامية ، حتى أنها تكون لك زينة وحلية فى حديثك مع

الناس أو استشهادك بها أمام الأساتذة والأقران. ونعود إلى ما كنا فيه من البحث عن كلمة فرنسية فى معجم انكليزى مطول فأقول — قلت لك لا تقف عند معنى الكلمة التى كنت تبحث عنها بل انزل إلى أصولها ومشتقاتها خصوصاً إذا كنت لم تجد تشابها بين الكلمتين الفرنسية فانك لا بد أن تجد فى المشتقات من الكلمة المشار اليها ما يوجد التشابه المطلوب المساعد على ربط المعنين ، وانى إذ أردت أن اضرب لك مثلا من هذا القبيل فأنى أجد نفسى مضطرا إلى استعمال الفاظ افرنجية كثيرة بحيث تخرج معى هذه الرسائل عن الطريقة العلمية التى أردتها لها ولا ضرورة لضرب الأمثال فانه تكفيك تجربة واحدة صغيرة لتصوير المراد من هذا الباب تصويراً متمكناً فى نفسك

وأعود فأنصحك بالجلد والصبر والعناية والتأنى فى مبدإ تعلمك اللغات ، فان ما تبذله من هذا القبيل فى مبدإ حياتك، يفيدك كثيراً كثيراً فى مستقبل أيامك ، ويعلى شأنك ، ويرفع ذكرك ، وينفعك فى أدق المواقف وأحرجها واسأل الله أن يقيك المكروه ويحفظ لك صحتك ، ويقوى عزيمتك .

الرسالة الثامنة

اللغة العربية نحواً وأدباً

ولدى العزيز

لا يطلب منك يابنيّ أن تكون رجلا لغوياً مبرزاً على غيرك فى دقائق اللغة وفنون الآداب العربية، فان ذلك غير ميسور لك، ولا لأمثالك الذين يتربون تربية عصرية جامعة لعلوم شتى ومعارف جمة ولغات متعددة، ثم ينقطعون إلى فن من الفنون العصرية النافعة فى معترك الحياة لمن يريد أن يكون مثلك من رجال النهضة العلمية العصرية، ورجال الظهور فى الحياة الدنيا.

أقول ان ذلك غير ميسور لك للأسباب التى بينتها بايجاز فيما تقدم، ولأنى لا أريد لك أن تنصرف بكل مجهوداتك للاقتصار على اللغة العربية لتكون من فطاحلها وأعلامها الذين يشار اليهم بالبنان وثقاتها، الذين يرجع اليهم فى الدرس والتعليم، لأن ذلك يقطع عليك سبيل الفوز على الأقران، واكتساب الثروة والجاه العريض والمجد المؤثل. اللهم إلا إذا توجهت نفسك إلى خدمة اللغة العربية، وتضحية حياتك ومستقبلك فى هذا الباب دون سواه، فتلك غاية محمودة فى ذاتها، ولكنى اصرح لك أنك تعيش بائسا وتأسف على مجهودات بذلتها، وأوقات قضيتها، وتندم حين لا ينفع الندم لكل مرشد طريقة، ولكل ذى رأى نصيحة، وربما تهيأت نفسك لما

احذرك منه، بل ربما سمعت من الناصحين عكس ما نبهتك اليه، ولكن يجب عليك أن تقف بنفسك فى ميلها عند حد الادراك، بأن ماتذهب اليه من الشوق غير مخصب لحياتك، ويجب أن تعرف فوق هذا أننى أنا والدك لا أريد لك السير فى هذا الطريق الذى أعرف مافيه من المتاعب والخسران وأننى أحب لك من صميم فؤادى، أن تكون صالحا للعصر الجديد، والحياة الواسعة التى أرشدك إلى سبيلها

ولتعلمن أنك مقبل على عصر جديد شديد التزاحم، وان دائرته أوسع مما يسمح به التفوق فى لغتنا العربية للفوز فى هذا المعترك. ومع هذا فانى بمالى من الشغف بلغتنا العربية وآدابها، وبما اعتقده من أن حياتنا القومية ومستقبلنا، بصفتنا أمة تطمح للرقى والنهوض إلى مصاف الأمم المتمدينة، مرتبطة بحياة اللغة العربية واعلاء شأنها، وتكوين آدابها، ونشر العلوم العصرية بها — أريد لك أن تأخذ من اللغة العربية بقسط وافر وان تسمو فيها على أقرانك، اجادة فى الكتابة والخطابة والفصاحة وحسن البيان وسرعة البديهة وظرف التعبير ورقة العبارة

قد يخالجك الشك فى معنى ما أريد بيانه، أو يخيل لك بعض التناقض فيما عرضته عليك، إذ تقول كيف يمكن أن آخذ من اللغة العربية بقسط وافر، وأن أسمو فيها على الأقران اجادة فى الكتابة والخطابة والفصاحة وحسن البيان وسرعة البديهة وظرف التعبير ورقة العبارة.. إلى آخر ماتقول فى هذا الصدد — إذا أنا لم اكن لغويا مبرزاً على غيرى فى دقائق اللغة وآدابها؟؟ أليس فى هذا شىء من التناقض؟ فأجيبك أن لا تناقض

ولا تعارض إذا فقهت إلى تمام القصد من هذه الرسالة. ولكى أزيدك بياناً أدخل معك فى بعض التفصيل الذى يحتمله هذا المقام فأقول :

اعلم يابنى ان الحياة قصيرة، والعلم طويل، وان اللغة العربية بحر خضم لاساحل له. وانك لو انقطعت لها طول حياتك جاعلا بغيتك النبوغ فيها دون سواها، لاقتضى عليك أن تترك ماعداها من العلوم والمعارف اللازمة لفوزك فى الحياة . ولكى تكون لغوياً عربياً أو شاعراً كبيراً، يلزمك أن تنقطع إلى اللغة العربية دون سواها، فتبدأ بحفظ القرآن الشريف والحديث وكتب اللغة المتعددة وتطلع على شعراء الجاهلية وتحفظ أشعارهم ـ وتتبع ذلك بشعراء الطبقة الأولى من المخضرمين، وتقف على أيام العرب لتفهم بها مايقع فى أشعارهم منها، وكذلك المهم من الانساب الشهيرة والأخبار العامة والخاصة، ثم تنقطع إلى مادة اللغة ومعجماتها بحيث لاتفوتك منها شاردة ولا واردة، وتجيد دراسة النحو والصرف والاشتقاق، وتتبع اللغة فى تطوراتها، وان زدت فى ذلك رجعت إلى تاريخ اللغة وأصولها فى اللغات القديمة كالعربية والحميرية والنبطية والفارسية. ردون ذلك خرط القتاد، وإضاعة العمر، ولا أقول فيما لا فائدة فيه، ـ فكل اشتغال بعمل جدى له فائدة تذكر، ـ ولكن أقول فيما لا يؤهلك للفوز والنجاح الصحيح فى العصر الجديد الذى أنت مقبل عليه، ولكل زمان احكام، ولكل عصر تربية واستعداد، والعالم جهاد وجلاد، وواجب على القائد الذى يدخل فى حرب أن يعدلها من القوة والنظامات العسكرية مايوافق قوة اعدائه ونظاماتهم وخططهم ونوع اسلحتهم، وإلا باء بالخيبة والخذلان، بل والموت الزؤام

والآن أقول لك من باب زيادة البيان والايضاح عما أريد أنه ليس من الضرورى، لمن أراد أن يكون أديبا طلق اللسان، فصيح الجنان، بليغ العبارة، طلىّ الاشارة، فى اللغة العربية، أن يتوغل فى فيافى اللغة ويبالغ فى الانكباب على دراسة نحوها وأصولها، لأن الانشاء مثلا ملكة فى النفس كالشعر والغناء والتصوير، لايبرع فيه من لم يكن مهيئاً له، وقد قال ابن خلدون فيلسوف الاجتماع، وسيد الكتاب المنشئين المفكرين، فى باب الأدب « إنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهى الاجادة فى فنى المنثور والمنظوم » وقال أيضاً « ان جمع كلام العرب لايستلزم دائما الاضطلاع بالأدب بل هناك استعداد فطرى يضعه الله فى صدر الانسان، وسر فى سويداء فؤاده وعلقة قلبه، لايعلمه إلا الذى أودعه وإنما يذكو على المطالعة ويربو بارتياد الأشكال الملائمة »

ولكم رأيت من الكتاب المجيدين، والشعراء المبرزين، من لم ينقطع الى اللغة ولم يكرع من مناهلها، بل من لم يجد نحوها وصرفها، فضلا عن تتبع آثار كتابها وشعرائها. فالذى أريده لك إذن هو أن تربى فيك — إذا كان فيك ميل للأدب العربى — تلك الملكة، لا بالتعمق فى اللغة، والانقطاع لها، ولكن بالتأمل فى محاسنها، واقتطاف أزهارها، وبترويض الذهن على استجلاء جمالها، وتكوين عاطفة الميل والمحبة لها، لتكون إن شاء الله كما اريده لك ملما بأطراف الأدب ـ، رقيق الحاشية، طلىّ العبارة، صحيح القول، حسن الانشاء، وان لم تعد فى الصف الأول من صفوف الكتاب أو الشعراء إلا إذا خصك الله بنبوغ فى ذلك يعوض عليك ما تضيعه من الزمن

النفيس فى دراسة اللغة على الطريقة التى لا أطالبها منك ، كما شرحت لك

نعم ان للغة العربية قوما يجب أن ينقطعوا لها، ويرتادوا ديارها، ويتوغلوا فى مجاهلها، ليكونوا أساتذة لها، وحجة ثقة فيها، وليزيدوا فى نحوها وارتقائها ويكونوا عمالا فى بناء قوامها، واعادة مجدها، وربما جاء الزمن الذين تقدر فيه مجهودات مثل هؤلاء الرجال فتكافئهم الأمة على مجهودهم خير مكافأة بالتعضيد الحسى والمعنوى . ومثل هؤلاء الرجال لا يطلب منهم إذ ذاك مثل ما يطلب منك ومن أمثالك، ـ رجال النهضة المقبلة، ـ أن يتعلموا لغات شتى وان يدرسوا العلوم العصرية التى تنهض بهم وبأمتهم، من علوم الاقتصاد والاجتماع والتاريخ العام والخاص والعلوم الطبيعية ، كالطب والكيمياء والفلك والميكانيكا والكهرباء ، وما اشبه ذلك من المعارف الضرورية للعصر الحاضر

ولا بأس من أن أستطرد فى هذا الموقف إلى نقطة معنوية ونصيحة أبوية ، وهى أنك لا تتأخر فى مستقبل أيامك ، إذا مهد الله لك سبيل النجاح إلى المراتب العالية، أو الثروة الطيبة ، عن أن تمد يد المساعدة والتنشيط، بكل ما تستطيعه من حول وقوة ، لأولئك المنقطعين إلى ترقية اللغة العربية وخدمتها ، فانك تخدم بذلك نفسك وأمتك . نفسك لأنك حين تقرب منك أولئك الرجال وتمنحهم الرعاية والتنشيط فأنهم لا يقصرون فى الثناء عليك ورفع منار فضلك، بل ربما خلدوا اسمك فى صحائف التاريخ بما يكتبونه عنك أو ينظمونه فيك، من عباراتهم السرمدية . هذا فضلا عما تكسبه من الحديث معهم وتلقط درر معارفهم التى بذلوا لها مهجهم ، وأسالوا عليها عرق جبينهم ، فتأخذها وتحفظها عنهم بالسهولة وبثمن بخس .

ومع كل ما تقدم لا زلت أريد أن أشرح لك بقدر ما استطيع ، وان كنت لست من فطاحل رجال الأدب، ولا من ذوى العلم الواسع فى هذا الباب، ما يجب عليك تحصيله والالتفات اليه ، لتكون من ذوى البراعة وأهل المعرفة ، وأبين لك أقل ما يلزم عليك الوقوف عليه لكى تتجمل به ، ويكون لك أساس التربية الأدبية التى لا تصلح أن تكون عربياً وابن عربى بدونها .

وسأكتب لك فى هذا الباب كلمة مسهبة فى رسالتى المقبلة

وهنا أستودعك الله وأبعث لك بتحياتى القلبية ، وقبلاتى الحارة والسلام.

الرسالة التاسعة

تعلم اللغة العربية وآدابها

ولدى العزيز

لا تذهبن إلى الظن بعد تلاوة رسالتى السابقة، أنى لا أحب أن تكون شاعراً مجيداً أو كاتباً بليغاً. كلا ثم كلا! فانى بالعكس من ذلك كثيراً أن تمتاز على أقرانك بكل ما تستطيع أن تتفوق فيه، فان أجدت معرفة اللغات الأوروبية، التى أبنت لك فى الرسالة السادسة والسابعة ضرورة اتقانها، وتخصصت فى فن من الفنون العملية كالطب أو الهندسة أو الحقوق، وألممت الماما عاما بالحركة العلمية والاجتماعية والأدبية فى العالم، وكنت فوق ذلك كاتباً بليغاً أو شاعراً مجيداً فى لغتك، فهذا نهاية الأدب، وغاية الطلب. ولكن إن لم تصل فى لغتك العربية إلى درجة الكاتب المجيد والشاعر المفلق، فلا أقل مطلقا من أن تكون، كما قلت لك، ملما بأطراف اللغة وآدابها، تحسن الكتابة فيها، بل تجيدها للتعبير عن أغراضك فى كل مطلب، سواء كنت من رجال الحقوق، أو من رجال السياسة، أو من زعماء الأمة، فى كل طريق من طرق الزعامة. ولكى تكون كذلك، يلزمك أن تعطى اللغة العربية الحظ الأول من دراستك، فتقبل على تعلم النحو والصرف وعلوم البلاغة. وأنت الآن فى المدرسة الأمريكانية التى قصدت من ارسالك لها أن تجمع بين التعليم العصرى الاوروبى وفى وقت واحد تجيد تعلم لغتك

العربية. وقد اشتهرت هذه المدرسة بالعناية باللغة العربية[1] حتى لقد تخرج منها الكثيرون من الكتاب الأدباء ورجال العلم فى السياسة والعلوم العصرية، ومنهم كثيرون من دعاة النهضة الجديدة، ورافعى أعلام اللغة، وبين أساتذتها اليوم من يشار اليهم بالبنان وتفخر بهم الشرق وتعتز اللغة فلست بخائف عليك أن تهجر لغتك وتنصرف بكليتك إلى اللغات الأجنبية ولهذا فأنا واثق أنك فى هذا الوسط وبجوار هؤلاء الأساتيذ وباتباعك ما أرشدك اليه، ولما هو موروث فيك من النعرة العربية، ستتكون فيك ملكة الميل إلى لغة آبائك وأجدادك وتشتد فيك رغبة الأغتراف من بحرها، ومتى وجدت هذه الرغبة فيك، فقد مهد لك السبيل

ومن حسن حظكم فى زمانكم كما أنه من حسن حظ اللغة العربية أن وضعت الكتب العصرية الطيبة لتعلم اللغة ودراستها على أحدث نموذج — وان لم تبلغ فى ذلك الشأو الذى بلغته اللغات الأوروبية — حتى صار من الممكن تحصيل الكثير من مادة اللغة ونحوها وصرفها وآدابها، مع الالمام بعلوم أخرى، ولغات شتى، فى زمن يسير، وهذا مما قضت به ضرورة الزمان وحاجة الناشئين إلى تلقى علوم جمة عصرية لازمة للفوز فى معترك الحياة، فان الكتب التى وضعت أخيراً فى مصر وفى سوريا لتعلم مبادىء النحو والصرف وعلوم البلاغة، فأغنت عن الكتب الأزهرية من الفية ابن مالك وابن عقيل

---

(١) أذكر هنا مع الأسف الشديد ان هذا الرأى فى الكلية الامريكية ببيروت لم يعد يصدق عليها اليوم اذ يظهر ان تعليم اللغة العربية قد انحط فيها كثيرا وان منزلتها لم تعد كما كانت قبل الحرب وقبل وفاة رؤسائها الاعلام وأساتذتها المتقدمين

وكذا وكذا ، قد قربت الطريق وخففت عن الناشئين صعوبة الخوض فى غمرات هاتيك الكتب المطولة التى وضعها أسلافنا العرب . وساعد على سهولة دراسة اللغة، وسهولة الألمام بها، وحسن الانشاء فيها للناشئين، انتشار الصحف والمجلات والكتب

على أنى مع ثقتى بأنك بالتفاتك وعنايتك بتعلم اللغة العربية وآدابها فى المدرسة ستحصل على الكفاية منها للحد الذى أريده لك ، فأننى شديد الرغبة فى أن تمتاز على أقرانك بالتوسع فى آدابها واستجلاء محاسنها والأخذ منها بنصيب وافر . لهذا أريد أن أضع لك بياناً لدراستك الخاصة ، واعنى بها ماهو خارج عن دائرة التعلم المدرسى فأقول :

يجب عليك أن تبدأ فى خلال أوقات فراغك من الدروس وأيام الأجازات القصيرة والطويلة ، بتربية ملكة الميل إلى آداب اللغة العربية لتنمو هذه الملكة فيك مع تقدمك فى السن، وتفتح لك أزهارها فى ربيع عمرك المقبل . ولما كان يصعب على الطالب للعلوم الكثيرة العصرية فى المدارس ، خصوصاً وهو غض عود الشباب ، أن يقرأ ويدرس قراءة جدية ودراسة جيدة، الكتب التى جعلها ابن خلدون أصول الأدب ، ـ وهى أدب الكاتب لأبن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى ـ أقول أن صعب عليه فى طور دراسته أن يكرع من مناهل هذه الكتب فليس من المستعصى عليه، وقد نمت فيه ملكة الرغبة ، وقويت فيه عاطفة الميل إلى آداب اللغة، أن يجعل لهذه الكتب الجليلة حظاً من دراسته أو مجرد إطلاعه فى أوقات فراغه، ومع هذا فانى، على

قصر باعى، أضع لك خطة فى هذا الباب أظن أنها تؤدى بك إلى الغاية المطلوبة لك وإن خالفت فيها لذين كتبوا فى هذا الباب . فأقول أن كتب القصص والروايات والسير الخيالية أو التاريخية المسبوكة فى قالب الخيال ، وحتى المشوبة منها بالخرافات ، لازمة للناشىء فى حياته الأولى ، لأنه فى قراءتها لا يشعر بأنه يتعلم وان دائرة خياله تتسع ، بينا هو يلهو بقراءة قصة خيالية أو سيرة حماسية، مثل قصص كتاب الف ليلة وليلة، وسيرة عنترة العبسى، سيما الأخيرة فأن عباراتها فصيحة وأشعارها جيدة السبك وحماسية البيان. حقيقة أن هذه السيرة مطولة ولكن أعرف من قرأها كلها فى مدة لا تزيد عن أجازة من الأجازات المدرسية ، ولا بأس من أن تتخذ للرياضة العقلية لتلاوة جزء قليل منها فى أوقات الفراغ من الدراسة .

كما أن الأطلاع على الروايات التاريخية ، التى وضعت أو ترجمت فى عصرنا هذا، مفيد جداً لتنمية ملكة الانشاء وتحسين العبارة اللفظية وتوسيع دائرة الخيال بنوع خاص، مع الحرص على أن لا يعلق بذهنك بعض التراكيب السقيمة التي سقط فيها المترجمون انحطاطاً للمحافظة على الأصل

وهذه الخطة لا تتعدى الدور الأول من زمن تعلمك ثم يلزم تركها جانباً لما هو امتن وأدق من كتب الأدب، فتبدأ بتلاوة كليلة ودمنه لابن المقفع . وهذا كتاب لا تقرأه كما تقرأ القصص والسير التى تقدمت الاشارة اليها، بل يلزمك أن تتمعن فى تراكيبه واسلوب عباراته وجودة بيانه، ومتى سرى فيك الاعجاب به ، فانك ستميل من نفسك إلى معرفة هذا الكاتب الذى يحسن أن يتخذ أسلوبه مثالا يحتذى به فتشغف بالاطلاع على ما كتب،

وله كتابان مطبوعان، وهما الأدب الصغير، والأدب الكبير، وكلاهما من الكتب المعينة على ترقية ملكة الكتابة. وفى هذا الدور يحسن بك أن تطالع الكثير من الكتب الأدبية التى من نوع المختارات والمنتخبات مثل كتاب مجانى الأدب، وخصوصاً أجزاؤه المتقدمة من الرابع إلى السابع وكلها خفيفة الروح لطيفة المأخذ، ثم تتدرج من هذا النوع إلى الكتب الجامعة لنبذ من التاريخ، وقطع من الأدب، ونتف من الفكاهة والملح، مما يغذى النفس برائع القول ويتخذ سميراً للمتأدب، وفى مقدمة هذه الكتب كتاب العقد الفريد للأديب ابى عمر ابن عبد ربه. وقد كان هذا الكتاب الجليل مشوباً بعيوب كثيرة، منها كثرة الأغلاط التى وقعت من تحريف النساخ وتكرار العبارات واشتماله فى بعض النقط على عبارات لا يليق نشرها ولا تتفق مع آداب العصر الجديد، فقام جماعة من أئمة اللغة والأدب فى هذه الديار فاختاروا أحسنه ورتبوه وبوبوه فى كتاب سموه «مختار العقد» احسن الله اليهم بقدر ما أحسنوا الى اللغة العربية

ومن هذا القبيل فى الدرجة الثانية كتاب الكشكول والمستطرف وفاكهة الخلفاء وأمثالها مما تمر عليه مرًّا خفيفاً كما تمر بين المروج الخضراء والحدائق الغناء، فان رأيت فيها زهرة جميلة من أزهار البيان، فقف عندها وقفة المعجب بها، المستنشق لعرفها. ولتكن معك على الدوام كراسة صغيرة تلتقط فيها ما تستحسنه من هاتيك الأزهار اليانعة لتضمها إلى باقة علمك وان كانت العبارة مطولة فلا بأس من الأشارة إلى مكانها وذكر صحيفتها وكتابها لترجع لها إذا أردت الاستشهاد بها أو محاكاة مثلها. ويجدر بك

إذا تمكن منك الأعجاب بفقرة عالية المعنى، رصينة العبارة، حسنة الاشارة، أن لا تكتفى بالوقوف عندها، وقفة المتفرج المستنشق، بل قف حيالها وقفة الدارس المتعلم، ولا تكتفى بالنظرة الأولى، بل عاودها وردد النظر والتأمل فى حبكها، حتى تسرى فى عقلك سريان الدم فى شرايينه.

وكن فيما تقرأه فى مبدإ حياتك، وعند مطلع شمس رغبتك فى الأدب، معجباً محباً راضياً من الكاتب بكل حسن، حافظاً من كتب الأدب ما تميل نفسك إلى حفظه فتتجمع عندك مادة ترجع اليها، وتأخذ منها، ثم أعد الكرة بعد زمن على ما قرأته ـ وقد قويت فيك ملكة التصوير، ونمت عندك روح النقد، وفكرة الادراك والتميز ـ ناقداً منقباً مفكراً، فمن رأيته من الكتاب محسناً فى وصف حالات النفس، غائصاً على لآلئ الحكمة، صادقا فى التعبير، جميلا فى وصف المناظر التى يعرضها فى كتابته، فاجتهد فى احتذاء مثاله، ومكن أقواله وأسلوبه من نفسك. وستجد الكثيرين منهم مغرما بالمحسنات، مضحياً فى سبيل ضخامة اللفظ، دقة المعنى وصدق الرواية، فاكتف من أمثال هؤلاء بأن تأخذ جانبا من جلال اللفظ، ورصانة التركيب، ومتانة الأسلوب. وان لم تجد من هذا النوع ما هو جدير بالعناية والاحتفاظ، فمر عليه مر الكرام

ويحسن بك يا بنى بعد دراسة علوم البلاغة، أن تطالع كتابى خزانة الأدب للحموى، والوسيلة الأدبية للمرصفى، لكى توسع دائرة التطبيقات والشواهد على قواعد تلك الفنون، ولكن على شريطة أن لا تفتتن بالبديع وما فيه من محسنات الصناعة، وتهمل المعانى الجيدة، والحكم البليغة، ويكفيك

الالمام السطحى ، واقتطاف ما يميل اليه ذوقك فى باب الأستشهاد والملح الأدبية . ولتكن مطالعتك للكتب المرتبطة بعلوم البلاغة فى أوقات فراغك وأيام أجازاتك المدرسية، ولتجتهد كثيراً فى أن تقيد فى كراسة خاصة ما يروق لك من أبيات الشعر وكلمات النثر ، مشفوعا كل بيت أو عبارة بما تنتسب اليه من المجاز والكناية والاستعارة والتشبيه والقياس والطى والنشر وبراعة الاستهلال وهلم جرا ، ثم لاتعد بعد هذه الفترة من المطالعة المدرسية، لهاتيك الكتب الا مصادفة

ثم يجب عليك أن تنتقل إلى ماهو امتن وأعلى، فى باب الأدب وكتبه الجيدة. وذلك لايكون إلا إذا تكونت عندك مادة وافية من اللغة، وطائفة كبيرة من معانى القول، حتى لاتتعب كثيراً ، أو تضيع وقتاً طويلا فى فهم هاتيك الكتب ، وفى مقدمتها كتاب الحماسة الذى جمع فيه ابو تمام زبدة القصائد العربية البليغة ، وكذلك مفضليات الضبى والمعلقات السبع . ولقد تتمكن بعد قليل من المزاولة والجلد، من فهم معانى اهم مافى هاتيك الكتب من الشعر البليغ مع التمكن من تفسيرها .

ونصيحتى لك أمام هذه الكتب أن تكتفى منها أولا بما يسهل عليك فهمه ، وما استعصى عليك فى أول الأمر فجاوزه إلى ماتستطيع ، وكل بيت من الشعر تشعر أنك قد وعيته، ورأيت فيه حكمة جليلة فقيده فى كراسة، خاصة وردده فى خلواتك وروحاتك وغدواتك ، فان وجدت ، بعد هذه المجموعة الصغيرة التى استخلصتها من ديوان الحماسة والمفضليات والمعلقات، رغبة فى نفسك للعودة إلى زيادة مجموعتك فافعل، وإلا فاكتف بالقليل الطيب

منها ، فان وقتك أقصر من أن يتسع للانكباب على هذه الكتب المطولة . وان مد الله فى عمرك ، وكان من حظك أن تكون صناعتك الانشاء والأدب ، ففى امكانك أن تغترف من بحرها بقدر ماتريد

وأمامك بعد هذا جولة أخرى فى دواوين الشعراء المجيدين من أمثال أبى الطيب المتنبى وأبى العلاء المعرى والشريف الرضى وابو نواس وابن هانئ الأندلسى، وعندى لو اكتفيت بسيد الشعراء «المتنبى» ، وكبير فلاسفة الشعر «المعرى» ، واحسنت اختيار ماتحفظه منهما لكفاك مؤونة

ولقد كانت لى فى زمن دراستى طريقة سهلة فى قراءة دواوين الشعراء ، وهى أنى كنت أعد لكل شاعر دفتراً صغيراً ، وانقطع فى كل يوم ساعة أو ساعتين ، لتصفح ديوانه ، فأقرأ القصيدة مرة واحدة ، واتصور عند تلاوة كل بيت من ابياتها فيما إذا كان من الممكن أن احتاج إلى هذا البيت ، أو ذلك المصراع منه ، للاستشهاد به فى موضوع انشائى أو فى خطاب رقيق لأديب من اصدقائى أو فى واقعة حال ، أو فى اشارة إلى شىء ، مما كنت اتخيله فى نفسى ، فان وجدت فى البيت أو فى احد مصراعيه ، أو حتى فى تعبير منه ، ما اظنه ينفعنى قيدته فى دفترى وربما مررت على القصيدة ان كانت غزلا أو مديحاً أو رثاء فلا أقيد منها شيئاً ، وربما قيدت نصفها أو ربعها او بيتا أو بيتين منها ، وكانت تكفينى نظرتان أو ثلاث فى الديوان ، ولا اكاد افرغ منه حتى أكون قد حفظت عن ظهر قلبى ماحلا لنفسى ومالت اليه جوانحى ، واتبع الديوان بالديوان حتى تجمعت لدى طائفة صالحة حفظتها واكتفيت بها

ويلزمك بعد هذا أن تكثر من مطالعة نوعين من النثر ، احدهما

رسائل الأدباء فى المخاطبات والمحاورات مثل رسائل بديع الزمان الهمذانى وابى بكر الخوارزمى . ولا بأس من حفظ بعض مقتطفات من هذا النوع لما فيه من رشاقة الأسلوب والخفة على الروح ، مما لا تجده إلا فى النادر مما كتبه العرب. ويلحق بهذا النوع من جودة الصناعة مقامات الحريرى ومجمع البحرين واشباههما، وفائدة هذين تفهم حسن الاستشهاد، وجمال التراكيب واستجماع كمية طيبة من أمثال العرب المعروفة ، التى تلزم كل كاتب وأديب فى كتابته وحديثه. ولا انصحك بحفظ مقامات أو رسائل كاملة من هذا النوع ، لأنه لا فائدة فى ذلك، كما أن وقتك أنفس، وذاكرتك أحوج ، من أن تضيع فى عمل شاق لا يفيدك بمقدار ما تبذله فيه من المجهود . ولا تنس أيضاً بعد هذا أن تقف عند كتاب نهج البلاغة وقفة تطيل فيها النظر إلى أسلوبه الرصين، وعباراته البليغة، وحكمه الجليلة، وسياسته الرشيدة ولا تنس مطلقاً أن تستخلص منه لنفسك خلاصة وافية تجمع فيها العبارات التى تجرى مجرى الأمثال، والجمل التى تتخذ حجة فى التدليل على رأى. وتجاوز فيه عما عدا ذلك

ويدخل فى هذا النوع، ويجرى مجراه، رسائل الصابئ ورسائل الشريف الرضى، والصاحب ابن عباد، والقاضى الفاضل من ذوى المكانة العالية فى النثر ، فانك تلمح من خلال كتاباتهم كنوز الحفظ ودرر الاختيار وجمال الصناعة مع حسن التعبير عن الأغراض، فانظر فى أقوالهم نظر المتأمل وقارن أساليبهم بأساليب غيرهم ممن أشرت اليهم

وأما النوع الثانى فهو الأسلوب التاريخى ، وهو على صنفين صنف

احدهما ما يسمى بالتاريخ الأدبى مثل كتاب الأغانى الذى من فاته الاطلاع عليه فقد فاته الدخول فى روح العرب وحياتهم فى أيام زهوهم ومجدهم ، ومن هذا الصنف كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الذى قيل ان من لم يقرؤه فليس بأديب. أما الصنف الثانى فهو أسلوب المؤرخين وفى طليعتهم ، بل وحامل رايتهم، والمنارة العالية التى يهتدى بها كل كاتب عربى، «ابن خلدون» فى مقدمته . وليس كل ما جاء فيها ينطبق على المبادىء الحديثة الصحيحة فى العمران والاجتماع، ولكن فضلا عن كونه أول من بحث فى هذه الأغراض ، فان أسلوبه فيها البليغ الرصين، الذى يسرى مع الروح، ويدخل للنفس مع النفس ، ويفتق الذهن ، ويقوى ملكة المنطق . ولا انصحك، إذا لم تنقطع إلى علم التاريخ، بالانكباب على كتبه المطولة، كتاريخ الطبرى أو الكامل لابن الأثير ، أو مروج الذهب للمسعودى، حتى ولا تاريخ ابن خلدون نفسه ، عدا مقدمته التى اشرت اليها آنفاً ، وحثثتك على مطالعتها بامعان ـ، لأن كتب التاريخ العربى، مع جودة عبارتها فى الغالب، هى أسوأ ما وضع فى اللغة العربية على الأسلوب القديم كما سأبين لك ذلك فى بحث خاص بدراسة هذا العلم .

الا أنه يلزمك الوقوف على نظرات تاريخية تربط لك عصور الكتاب والشعراء وأحوال الاجتماع المحيطة بهم ، والتى كانت عوامل التنشيط أو الحركة الأدبية هى القوة الدافعة لنبوغ من نبغ . وكيف يمكنك أن تدخل فى روح المتنبى وشعره ، إذا لم تعرف أحوال زمانه ، واخبار بنى حمدان وسيف الدولة ، ثم معاملة، كافور الأخشيدى لهذا الشاعر الصميم، كما انه من

لوازم معرفة النهضة الأدبية فى ذلك العصر ، أن تعرف التنافس الذى كان بين الدول المنشقة من الدولة العباسية

ففى دولة بنى حمدان نشأ المتنبى وأبو فراس، وكوفىء أبو الفرج الأصبهانى وفى دولة بنى بويه رفعت راية النثر لابن العميد والصاحب ابن عباد ، وانى انصح لك أن لا تفوتك مطالعة كتاب المستشرق الأستاذ نيكولسن المسمى (تاريخ العرب الأدبى) فانه وضع على أسلوب جميل يمكنك من معرفة التاريخ بالقدر اللازم لربط عصور الكتاب والشعراء والمؤرخين والمفكرين فى اللغة العربية ، وهذا الكتاب فى اللغة الانكليزية سهل المطالعة جذاب العبارة كأنه موضوع فى قالب رواية محكمة الحلقات

ولشد ما أحب أن أكتب لك عن أهل الأدب العصرى وما جادت به قرائحهم فى العهد الأخير فى الشرق ، سواء كانوا من كتاب الأدب المحض ، أو أرباب الأقلام فى الصحافة العربية . لأنى أعرف لبعضهم بلاغة لا تقل ، بل ربما فاقت بلاغة المتقدمين من أهل الصناعة المشهورين، ولكن رأيت أن أترك ذلك لشهوتك العقلية فى حب الاستطلاع ، متى غرست فيك الرغبة فى الأدب والميل اليه .

وإن يكن ما ذكرته عن سبب امتناعى عن ذكر أسماء ومؤلفات وأعمال الكتاب العصر الأخير، الأموات منهم والأحياء ، كافياً فى عدم الاشارة اليهم ، إلا ان السبب الأكبر هو رغبتى فى أن لا أفتح للمناقشة بابا ـ اذا نشرت هذه الرسائل ـ لأنه يوجد الكثيرون من المعاصرين على قيد الحياة ممن يمتون الى الأدب بصلة متينة، ولكن شهرتهم محصورة، فى

حين إن بعض الذين حازوا شهرة بعيدة ، وهم حريصون على هذه الشهرة ، غير جديرين بالذكر فى باب الميزة، ولست ممن يقدرن لعملهم قيمة كبيرة، حتى أحث ولدى على الاعتناء بما كتبوا وصنفوا .

فضلت أن أقف معك عند هذا الحد وأترك لك ارتياد مملكة الادب العصرية ، وتقدير رجالها وأعمالهم على قدر ما تحكم به لهم من المنزلة والقيمة الجديرة بالذكر والخلود . وانى واثق انك إذا سرت على المنهاج الذى شرحته لك، فانك بحول الله وقوته ستصل إلى درجة لا تحتاج معها إلى التزود من مادة كاتب عصرى مهما علت منزلته وغزرت مادته . وهذا كله لا يمنعنى من أن أرشدك بنفسى إلى ما لبعض كتابنا وشعرائنا العصريين من المكانة السامية والمنزلة العالية . ولا يبعد أن أرى نفسى فى زمن من الأزمان، إذا أمد الله فى عمرى، راغباً فى كتابة بحث مطول عن كتاب النهضة العصرية . وفقك الله يابنى إلى حب الأدب العربى ، وخدمة لغتك ولغة آبائك وأجدادك ، ووطنك ودينك، والسلام عليك ورحمة الله .

الرسالة العاشرة

اللغة الانكليزية نحواً وآداباً

ولدى العزيز

لا يطلب منك فى اللغة الانكليزية ، وفى جميع ما تتعلمه من اللغات الأجنبية مثل ما يطلب منك فى اللغة العربية فان هذه لغتك الأساسية، لغة قومك وعشيرتك ، لغة حديثك وكتابتك ، لغة اعمالك فى نهضة أمتك، وهى فوق ذلك لغة دينك وعصبتك. ولهذا توسعت لك فى شأنها، وحثثتك على الالمام بأطرافها والتفوق فيها على الأنداد والأقران وقد يطلب منك فيها أن تنشىء الرسائل وتضع التقارير وتكتب المذكرات وتقنن القوانين . بل قد يطلب منك إذا كانت دائرة حظك أوسع، ومستقبلك فى باب الحياة العقلية أفسح ، أن تكون كاتباً بليغاً، وشاعراً مجيداً، وخطيباً فصيحاً، ومدرهاً متفوقا ، ومجادلا قاهراً ، ومناظراً ظافراً ، وزعيما مرشداً، ومتكلما على البديهة مرسلا. أما فى اللغات الأجنبية، وفى نوع خاص فى لغتك الثانية بعد العربية، واعنى بها الانكليزية، فدائرة ما يطلب منك فى عملك محدودة ، إذ لا ينتظر منك أن تكون فيها مؤلفاً ولا شاعراً ولا خطيباً ولا كاتباً ، وان كان يتحتم عليك أن تكون على مقربة من ذلك بحيث تستطيع كتابة الرسائل للصحف ، أو مكاتبة أهل هذه اللغة بها ، أو إلقاء

خطاب موجز، أو وضع تقرير أو مذكرة أو بيان، مما تقتضيه مصلحة عملك، فى حياتك المستقبلة، فلذلك أريد فى هذه الرسالة أن ابين لك الطريق القويم لادراك غاية ما يراد منك، ومايصح أن تتوجه اليه عزيمتك، بغير افراط ولا تقصير

ولقد اجملت لك فى رسالة تعلم اللغات الخطة التى يجب عليك اتباعها بوجه عام، فى طريقة دراسة اللغات الأجنبية، التى تتوجه إليها رغبتك ، وتقضى بمعرفتها مصلحتك ، والآن اكتب لك بياناً موجزاً فى موضوع تعلم اللغة الانكليزية نحواً وآدابا فأقول :

المدرسة التى تتعلم فيها كفيلة بدراسة مبادىء اللغة الانكليزية نحواً ومطالعة وآدابا. ولها، كما لكل المدارس، نظامات وخطط وكتب مدرسية تتبعها وتسلك سبيلها وتدرسها ـ والطالب مرغم على السير معها، فلا معنى إذن لأن أضع لك طريقة خاصة لدراسة اللغة الأجنبية، سوى ما ارشدتك اليه بوجه عام، فى رسالة تعلم اللغات. إلا انى الفت نظرك وأنت طالب، إلى الاعتناء التام بنحو اللغة وقواعدها ، فانه لا يتم ، لمتعلم لغة من اللغات الاجنبية، التمكن منها مالم يؤسس دراسته فيها على أساس متين من نحوها، الذى يسمونه بالأجرومية ، وتصريف الأفعال فى صيغ الماضى والحاضر والمستقبل والشرط والأمر وتركيب الجمل واعرابها ومعرفة مواقع الضمائر فى صيغة الفاعل والمفعول ومواضع حروف الجر ، وما أشبه ذلك من المعارف الأولية فى النحو .

ومعروف لدى العارفين أن نحو اللغة الانكليزية من السهل بدرجة

كبيرة إذا قيس بغيره من صعوبة النحو والصرف فى اللغات الأخرى ومع قليل من العناية والتدقيق يمكنك فى زمن يسير أن تكون متمكناً من نحو هذه اللغة خصوصاً مع كثرة التمرينات فى تركيب الجمل واعرابها وتحليلها

والذى أوجه اليه نظرك بنوع خاص فى تعلم اللغة الانكليزية ، هو جودة النطق وصحة الكتابة ، لأن هذين أصعب مايعترض الطالب فى دراسة هذه اللغة ، ذلك لأن النطق فيها كثير الشواذ فكثيراً ما ينطق بالحرف على غير أصله فتنطق الالف « واوا » والواو « الفا » والجيم مع الهاء فاء ، كما تعرف ذلك حتى فى مبدأ تعلمك ، وفى هذا تجب الدقة ، وتستلزم العناية ، ومداومة الصبر ، وحسن التقليد للمتكلمين والأساتذة ، وكذلك تجد صعوبة فى صحة الكتابة لأن كثرة التماثل فى نطق حرفين يتقدم أحدهما الآخر أو يتأخر عنه ، توجد الريب والخطأ مالم تكن كثير العناية . وتذكر أن النظر الى الكلمات مطبوعة أو مكتوبة يحفظك كثيراً من الوقوع فى الخطأ ، لتعود النظر على الصحيح ، حتى إذا اخطأت فى الكتابة تجد من نظرك ما ينبهك إلى الخطأ

ومما يسهل عليك تعلم اللغة الانكليزية حفظ الكثير من المفردات . واللغة الانكليزية من أوسع لغات العالم مادة فى الألفاظ ، وذلك يرجع الى أسباب فى تاريخ اللغة ، ولكن لا تسلك فى ذلك طريقة جمع طائفة من الألفاظ وحفظها فى قائمة كما يفعل بعض التلاميذ أو كما يقضى به بعض المدرسين ، فان هذه طريقة عقيمة ومتعبة للغاية ، وقلما يعلق بذهنك من عشرين كلمة بعد التعب

فى حفظها واجهاد ذاكرتك فى مسكها النصف منها ، وعندى أن تقف على معانى الالفاظ مرتبطة بالعبارات الواقعة فيها حتى تربط المعنى اللفظى بمجموع المعنى العمومى للعبارة ، وتعيد تلاوة هاتيك العبارة وفهمها فتعلق بذهنك معانى الفاظها بالسهولة فلا تذهب من ذاكرتك بعدها أبداً . وخذ لذلك مثلا : إذا كنت تقرأ فى قصة صغيرة أو صحيفة من كتاب مفيد وعثرت فى تلك القصة أو فى صفحة من صحف الكتاب على عدة كلمات لا تعرف معناها ، فاما أن تسأل عنها ـ وهو الأسهل ـ المتعلم أو التلميذ المتقدم عنك ، ثم تكتب المعانى بقلم من رصاص على هامش الصحيفة (والأولى ان تكتبها فى دفتر صغير مشفوعة بالعبارة الواقعة فيها) ، واما أن ترجع إلى القاموس الانكليزى العربى ، أو الانكليزى الانكليزى ، فتجد معانى كثيرة فى الغالب لتلك الكلمة ، فتختار بالبداهة المعنى الموافقة للعبارة التى لديك ، وتستفيد فى آن واحد معانى أخرى للفظ تنفعك فى موقف آخر ، وهكذا مع الممارسة وطول الزمن يتكون عندك ما يعبر عنه بقاموسك اللفظى ، وكلما كان قاموسك كبيراً ، كلما كانت معرفتك باللغة الانكليزية أوسع وأتم .

وبعد ان تتم دراستك الأولية فى النحو والاعراب وتتجمع لديك كمية مناسبة من الفاظ اللغة ومعانيها فابدأ بالمطالعة فى القصص المختصرة والحكايات اللذيذة (هذا عدا ما تقرؤه مع التلاميذ فى المكتب فى كتب المطالعة) ثم تتدرج من هذه إلى كتب الروايات لكى تأخذك بأسلوبها والشغف بالقصة أو الرواية ، إلى الاستمرار فى مطالعتها ، فتثبت عندك ملكة التعبير ، وتقتبس منها التعبيرات الجيدة . ونصيحتى لك فى أول مزاولتك

القراءة أن لاتتخطى عبارة دون أن تفهمها جيداً، وكتاب تقرؤه وتفهمه فهما صحيحاً فى شهر من الزمان، انفع لك الف مرة من عشرين كتاباً تتخطف معانيه أو موضوعه خطفاً

ومما انصحك به فى هذا الدور من المطالعة، أن تقرأ لنفسك بصوت عال ليتعود لسانك على النطق بسهولة وتسمع اذنيك صوت اللغة فتألفه لسماع غيرك . ولكى تقدر على الكلام بما تعوده لسانك من القراءة .

وعليك إذا عثرت بعبارات تستملحها نفسك، ويميل اليها طبعك، سواء من حكمة عالية، أو من جملة فصيحة سلسلة، أن تقيدها فى دفترك وتتأنى فى كتابتها حتى ترسخ فى ذهنك، ثم تتخذها للأستشهاد أمام المعلم أو فى ورقة الأمتحان شاهداً على تعبير خاص، أو مثالا على قاعدة من الأعراب أو التحليل، أو موقع لفظ فى تعبير، فيلحظك المعلم بعين خاصة ويرى أنك من المجتهدين الذين لايقتصرون على الأمثلة الواردة فى كتب التعليم، هذا فضلا عما تكسبه من تقييد العبارات من صحة اللفظ وضبط حروفه الهجائية للأملاء وجودة المعنى وحسن السبك فى التراكيب

والآن افرض انك تمكنت من فهم اللغة ووصلت الى درجة الاجادة فى كتابتها ومطالعة الكتب الجيدة فيها، فانتقل معك الى الكلام عن آداب هذه اللغة، واذكر لك من الأرشادات التى رأيت بعد التجربة أنها تساعدك على زيادة التوسع فى الانكليزية، والأخذ منها بالنصيب الوافر الذى لابد منه لمن يريد أن يكون فى صف العارفين حق المعرفة بهذه اللغة فأقول :

ان مجرد تعلم هذه اللغة الانكليزية للأكتفاء بالكلام الصحيح، وكتابة المراسلات الشخصية، وقراءة روايات أدبية، لايضعك مطلقاً فى صف الممتازين الذين يلجأ اليهم فى وقت الحاجة لعمل هام قد تقضى به مصلحتك فى وظيفتك، إن كنت موظفاً، أو فى صناعتك أن كنت رجلا حراً فى أى سبيل من سبل الحياة . وأنا انما أريد لك الميزة على الأقران، والتقدم إلى الصف الأول فى صفوف الناجحين . هذا إن لم أطلب منك أن تكون أنت وحدك الصف الأول، أو تكون الرجل الذى يشار اليه بالبنان، أو كما يقول بعضهم « المنارة العالية التى يهتدى بها فى الليل، والصخرة المتينة التى ينحط عنها السيل » وذلك لايكون إلا إذا كنت فى كل ماتتعلم، وفى جميع ماتتوجه اليه رغبتك، وتنصرف اليه بغيتك، سباق إلى الغايات، فاما الصدر واما القبر . وحياة الوسط بين هذين، اشتراك مع العامة، وخور فى الطبيعة . فأن لم تستطع، وليس هو بالمطلوب منك، أن تكون منشئاً بليغاً وخطيباً مفوها بالانكليزية، فلا يصح أن تظهر منك بادرة جهل بتاريخ آداب الانكليزية بوجه عام . أى إنه لايليق بمن كانت تربيته فى الدرجة التى اريدها لك، أن يجهل اسماء كبار الشعراء والكتاب، ولا اهم ما كتبوه وانشأوه من المؤلفات، التى تعد عند الانكليز فى الدرجة الأولى فى البيان والمنزلة العليا، فى فصاحة اللسان . فان كان لايطلب منك قرض الشعر، فلا مندوحة من الوقوف على اهم قصائد الشعراء المجيدين . وليس من الضرورى أن تدرس بتوسع رقى اللغة الانكليزية وتطورها فى أدوارها من عهد تشوسر - فى أول حكم الملك ادوارد الثالث، أى فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى إلى

زمن شكسبير، فى النصف الأخير من القرن السادس عشر ـ فى عهد الملكة اليزابت، وهو عهد إزهار الآداب الانكليزية إذ ظهر فى هذا العهد من الممتازين ادموند سبنسر وفرانسيس باكون رافع لواء الفلسفة الحديثة والكاتب الاخلاقى العظيم. فأن العهد الأول ومدته قرنان من الزمان تقريباً « ١٣٧٠ — ١٥٥٠ » واكبر شعرائه « تشوسر » ويسمونه « والد الشعر الانكليزى » وقد كان اسلوب الشعر فى ذلك العصر غامضاً وطريقة هجاء الالفاظ قديمة تخالف ماهى عليه الآن. وكانت اللغة الانكليزية فى مبدأ تكوينها من اللغات العديدة، كالسلتية والسكسونية واللاتينية، ومع ان تشوسر أول من قارب بشعره ونثره اللغة الحديثة فقد كان تأثير اللغة الايطالية على تشوسر، وكتاب ذلك العهد، ظاهراً اذ كانت مؤلفات دانتى وبترارك وبوكاتشيو، اكثر الكتب تداولا بين الطبقة المهذبة من الانكليز. حقيقة أن دانتى مات قبل مولد تشوسر بنحو احدى عشرة وقيل سبعة عشرة سنة، ولكن «بترارك» وبوكاتشيو كانا على قيد الحياة وينسب كتاب تاريخ آداب اللغة الانكليزية تأثيراً كبيراً لأولئك المؤلفين الايطاليين على كتاب هذا العهد القديم، وحتى لقد قالوا إن حكايات « كانتربرى » التى هى اكبر أثر لتشوسر، إنما هى تقليد لكتاب بوكاتشيو (ديكا ميرونى) — أى كتاب العشرة أيام الذى جمع أووضع فيه ماية حكاية نسبها إلى رجال ونساء فروا من فلورنسه ذعراً من طاعون سنة ١٣٨٤ وبقى أثر النفوذ الأدبى الايطالى فى انجلترا إلى شعراء القرن السادس عشر وتأثيره ظاهر فى شكسبير

وأما العهد الثانى لآداب اللغة الانكليزية الذى يحفل بدراسته دراسة جدية، فيبتدىء بشكسبير وشعره الضخم فى رواياته البالغة حد الاعجاز، وينتهى بباكون مؤسس الفلسفة الحديثة ومقالاته الحكمية. واعلم أنك إذا لم تعن بشاكسبير حق العناية فى دور تعلمك الأول فانك لست بآخذ من اللغة الانكليزية بنصيب وافر، لأن منزلة شعر شكسبير فى الانكليزية كمنزلة القرآن الشريف فى اللغة العربية، فهو أساس البلاغة، وخزانة الحكمة. ومع أنهم يعدون أسلوب شعره قديماً، ويعترفون أن كثيراً من كلماته قد خرجت الآن عن معانيها التى وردت بها فى شعره، فانهم لكثرة تلاوته والاعجاب البالغ حد الاجلال والتقديس لأشعاره وحكمه وأمثاله، قد الفوا نغمته ورددوها، ونطقوا بلهجته وإن أنكروها، فلذا يلزمك يا بنى أن تعكف على قراءة روايات شكسبير وتلاوتها، وحفظ عباراتها، والقطع المختارة منها، باهتمام زائد. ولا يهولنك أمره فى أول مطالعتك له فتنفر منه أو تهيبه، لأن صعوبة شكسبير على الأجنبى من الانكليزية معترف بها، ولكنى أؤكد لك أن أسلوب شكسبير فى جميع رواياته واحد، فاذا أنت فهمت واحدة من رواياته، مثل رواية هامليت، أو رواية تاجر البندقية، فهماً صحيحاً، ووعيت معانى الكلمات منفردة، والتراكيب متجمعة، فقد فتح لك الباب بمصراعيه. ورأيى أن لا تبتدىء فى روايتك الأولى من شكسبير منفرداً، فان لم تطالعها قطعة فقطعة مع الاستاذ فى المدرسة، فاعتمد على طالب متقدم عنك سبقت له دراسة (ولا أقول مطالعة) تلك الرواية. وتوجد لروايات شكسبير طبعات مدرسية يصحب كل رواية تفسير واف

للفظ والمعنى وهى مفيدة للمبتدىء فى شكسبير كثيراً ويمكنك أيضاً قبل مطالعة الرواية أن تقرأ موضوعها فى النثر المعتاد فى كتاب « قصص لام عن روايات شكسبير » وقد ظهرت أخيراً فى انكلترا روايات نثرية سهلة القراءة عن كل رواية من روايات شكسبير ، والخلاصة أن كل مجهود تبذله فى فهم شكسبير حق الفهم غير ضائع ، بل هو بمثابة الاساس المتين فى بناء معرفتك للغة الانكليزية المعرفة الصحيحة التى وصفت لك الغرض منها فى مقدمة هذا الكلام .

وأما باكون فيكفيك الاطلاع الجيد على مقالاته البليغة أو على المختار منها وأفضلها عندى مقالات — عن الدرس — عن الصدق — عن الانتقام — عن الحسد — عن الحب — عن الصداقة — عن الصغر والكبر .

وأسلوب باكون فى المقالات ليس بالسهل لأن عباراته مع سهولتها منفردة ، موجزة جداً ، جامعة للمعنى الكبير فى اللفظ القليل ، مع بعد نظر وفلسفة فى الحكم والأغراض . ولكن مقالات باكون مع هذه الصعوبة لاتحتاج إلا إلى ممارسة بسيطة وعناية فى فهم اسلوبه حتى تسهل بعدها البقية ، واما كتبه الأخرى التى جعلت له المنزلة الأولى فى عالم الفلسفة وصيرته خالد الاسم ، بصفته واضع اساس الفلسفة الحديثة . فليست مما يدخل فى آداب اللغة والتمكن منها ، وإن كانت لازمة لمن يتوسع فى دراسة الفلسفة وتاريخها وأدوار انتقالها من عالم الخيالات ، والتصورات العقلية ، والاقيسة المنطقية ، إلى عالم الحقيقة والعمل ، والانتفاع بها فى رقى العلوم الطبيعية

والرياضية بل والصناعية أيضاً .

وأما ملتون فيكفيك من شعره « مصة الوشل » إذ ليس من الضرورى مطلقا أن تقرأ كتابيه « الفردوس المفقود ، والفردوس المكسوب » فأنهما مطولان ، وقل من يدرسهما من الانكليز إلا من تخصص للآداب اللغوية ، وان كان يحسن بك أن تدرك الغرض من هذين المؤلفين الشعريين ، وتتطلع على نتف من مختارات شعره فيهما خصوصا ما كان منها فى باب وصف الجنة والملائكة ، ولا بأس من أن تقرأ له بأمعان قصيدتيه المسميتين « السرور » « والتفكر »[1] . ولملتون من النثر بعض الرسائل البليغة التى يجدر بك أن تقف عليها ، وهي مطبوعة فى كتاب صغير اسمه « نثر ملتون » وتكفيك منها رسالته البديعة التى موضوعها حرية الصحافة ورسالة فى « التربية »

وبعد ملتون تدخل فى كتاب وشعراء القرن السابع عشر ، منهم من عاصر ملتون ومن لم يعاصره ، وفى الأولين « دريدن » وله من القصائد المشهورة « ماك فلكنوى » التى مطلعها

All human things are subject to decay,
And when Fate summons, monarchs must obey.

وهى غاية فى بلاغة التقريع المؤلم والسخرية القاتلة لخصومه السياسيين فى ذلك العهد . وله أيضا قصيدة كتبها فى ليلة واحدة عن « الموسيقى » اسمها (Alexanders' Feast) ومطلعها

---

(١) L'allegro, Il Pansero
ومطلع الاولى Hence, loathed Melancholy...
ومطلع الثانية Hence, vain deluding Joy...

'Twas at royal feast, for Persia won,
By Philips' warlike son...

وله ايضا قصيدة « السنة العجيبة » Annus Mirabilis وصف فيها حرب انكلترا مع هولاندا وحريق لندن المشهور عام ١٦٦٦ . ودريدن شاعر من شعراء العرش Poet Laureat من سنة ١٦٧٠ إلى ١٦٨٨

وأحق الكتاب فى القرن السابع عشر بالقراءة والتمعن والوقوف على بعض رسائله جون لوك John Locke الفيلسوف ويكفيك فى الغرض المطلوب منه مقالاته عن « المبادىء » — « الملاحظة » — المطالعة — التربية

ومما يجب أن تلاحظه فى دراستك لآداب اللغة الانكليزية ، سيما بعد وقوفك على آداب اللغة الفرنسية ، كما هو محتم عليك ، تأثير الشعراء والكتاب الفرنسيين ، على الآداب الانكليزية فى القرن الثامن عشر ، حتى سمى ذلك العصر « عصر النفوذ الفرنسى » . والسبب فى ذلك راجع إلى نقطة تاريخية لا بأس من الاشارة اليها .

أبنت لك فيما كتبته لك عن الآداب العربية ضرورة الالمام بالتاريخ العام لسهولة تصوير الحركة الادبية وعوامل التنشيط والمؤثرات الواقعة على نفوس الكتاب والشعراء . وقد كان القرن التالى لدريدن — (من ١٦٨٨ — إلى الثورة الفرنسية ١٧٨٩) عصر منازعات سياسية ، ومناضلات حزبية ، وكان الشعراء والكتاب ينضمون إلى الأحزاب المختلفة ، ويكتبون ما يرضى الرؤساء والزعماء ، وما توحى به مطامعهم الشخصية ، وزد على ذلك أن أنصار الملكية فى انكلترا الذين هاجروا إلى فرنسا ، بعد سقوط تشارلس الأول ثم عادوا إلى

انكلترا مع الملكية ، من أول حكم تشارلس الثانى ، تشربوا روح الآداب الفرنسية فى صناعة الشعر وتنميقها ، والمحسنات اللفظية واتقانها ، وانصرفوا إلى جعل الشعر واسطة لبسط الآراء الفلسفية ، ووسيلة لهجو خصومهم ، وانتقاد مناظريهم . حتى جاء شعراء القرن التاسع عشر ففكوا خيال الشعر من قيوده الصناعية . وتأثير « بوالو » فى قصيدته « صناعة الشعر » L'art Poetique على « بوب » فى كتابه Essay on Criticism — ظاهر لأولى المعرفة .

فى العصر الذى نحن بصدده ظهر كثير من فطاحل الكتاب والشعراء مثل اسكندر بوب المتقدم ذكره ، وديفو ، وسويفت — اديسون — ستيل — جونسون — جولدسميث — دافيد هيوم — وآدم سميث — توماس غراى — أدمون بورك — جبون — تستشرفيلد : وكل كاتب وشاعر من هؤلاء له المؤلفات المطولة ، والقصائد البليغة ، والحكم الجزيلة ، والبيان الرائع ، والأدب الغض . وإنى ذاكر لك بعض ما أظنه ضروريا لمطالعتك ودراستك كما أنى واثق أنك ستجد فى مستقبل حياتك ميلا للاغتراف من بحرهم ، والتتبع لأخبارهم .

يكفيك من « بوب » بعض شذرات من شعره تجرى مجرى الأمثال والحكم خصوصاً « رسالته عن النقد » التى قلد فيها هوراس اللاتينى وبوالو الفرنساوى فمن ذلك قوله فيها

A little learning is adangerous thing,
Drink deep, or taste not the Pierian spring.

وقوله :

Good nature and good sense must ever join,
To err is human, to forgive divine,

وأما ديفو (Defoe) فسيبقى لديك دائماً مؤلف رواية (روبنسون كروزو) التى يقرؤها كل ناشىء فى اللغة الانكليزية ومثله سويفت فى « سياحات جوللفر »

وأما أديسون وستيل فأهم ما يقرأ لهما، مقالاتهما التى نشرت فى مجلتى سبكتاتور وتاتلر Spectator and Tatler وأحسن ما للأول مقالة « خيال مرزا » وصناعة « التجهم » The vision of Mirza, The art of grinning وللثانى مقالة « الهناء العائلى ـ A scene of domestic filicity ومقالة On the death of friends عن وفاة الاصدقاء

وأما الدكتور جونسون، زعيم الكتاب والشعراء فى القرن الثامن عشر، فهو المحور الذى يدور حوله عصره، ولا بد لك أن تقرأ تاريخ حياته بقلم صديقه (بوزيل) فانك لا تشبع من قراءتها، وهى التى توقفك تماماً على الحركة الأدبية فى ذلك العصر، ولجونسون من الشعر الحكيم قصيدتان بديعتان تقرآن بامعان، إحداهما تسمى « لندن » والثانية « غرور المآرب الأنسانية »[1]

ولا تفوتنك مطالعة « قس ويكفيلد » لجولد سميث، فهى السحر الحلال، والأسلوب الذى يسيل رقة، ويبعث فى النفس عواطف الحنان والمرؤة ومكارم الأخلاق، وله من القصائد « السائح » و « القرية المهجورة »[2] مما تحب قراءتها وحفظ المختار منها

ويقرأ من كتابات دافيد هيوم، بعض رسائله الأدبية والفلسفية، وهى

(١) "Vanities of Human wishes"

(٢) The Traveller, The Deserted Village

سهلة خفيفة تبعث على التأمل وتربى ملكة التفكر . وأما توماس غراى الذى بلغ فى جودة النظم، ودقة الصناعة، نهاية النهايات، فلا تسمى عارفاً باللغة الانكليزية ما لم تحفظ له على الأقل قصيدة « مرثية فى صحن كنيسة قروية »[1] وقصيدة « على مرأى من كلية ايتون »[2]

ومن رجال الفصاحة النثرية والخطابية والأسلوب التاريخى فى أخريات القرن الثامن عشر، أدمون بورك، فان لم تستطع أن تقرأ تاريخ حياته وبعض خطبه الفصيحة، فلا أقل أن تطالع رسالته « فى الذوق » وكتابه عن الثورة الفرنسوية، ومنهم (جبون) صاحب التاريخ الفذ الذى بلغ به المكانة الأولى بين مؤرخى العالم، وهو مطول فى سبعة أجزاء وموضوعه « تاريخ انحطاط وسقوط الدولة الرومانية » فان لم تستطع أن تقرأه كله فى دراستك لعلم التاريخ، فلا أقل من ضرورة مطالعة الجزء الخاص بظهور الديانة المحمدية وانتشارها وفتوحات الاسلام، ومقارنته بما درسته من هذا القبيل بلغتك العربية، وما جمعته فى خزانة عقلك من المعلومات التاريخية . ولهذا المؤرخ الأسلوب البليغ الذى يتمشى مع الروح، ويسرى فى النفس بخفة النسيم، ورقة الهواء العليل .

ولا تختم دراستك فى آداب القرن الثامن عشر حتى تتوجها بقراءة « رسائل اللورد تشسترفيلد لولده » ففيها المطرب والمعجب من طلاوة اللفظ، ورقة الأسلوب، إلى بليغ الحكمة وحسن النصيحة، مع أنه لم يكتب

(١) Elegy written in a Country Church Yard,

(٢) On a distant prospect of Eton College.

تلك الرسائل لتنشر بعده ، وستجدنى فى بعض رسائلى اليك راجعاً إلى بعض آراء اللورد تشستر فيلد

وأما شعراء القرن التاسع عشر فقد بلغوا الشأو الأعلى فى فك الشعر من قيود الصناعة والتكلف ، وفى سموه إلى الأسلوب الشعرى المعبر عن وجدانات النفس، وتصوير العواطف الانسانية ، ونبض القلوب البشرية ، وزعماء النصف الأول فيه و«ردسورث» و«كولردج» و«سوذى» ويكفيك من الأول مقطعاته المسماة Sonnets وتؤلف من خمسة عشر بيتاً من الشعر، واخص بالذكر منها «Upon Westminster Bridge» التى مطلعها

Earth has not anything to show more fair,

وأخرى عن ملتون ومطلعها

«Milton ,thou shouldst be living at this hour»

وكثير من هذه المقطعات الرقيقة لورد سورث وغيره من معاصريه، وممن جاؤا بعده، مثل كامبل وكيتس وشيلى وبيرون مجموعة فى كتاب المنتخبات المسمى «الكنز الذهبى» Golden Treasury للمستر «فرنسيس تورنر بالجراف» أحد اساتذة الشعر فى جامعة اكسفورد، وفى هذا الكتاب مختار الشعر من عهد شاكسبير إلى نهاية القرن التاسع عشر. ولا بد لك أيضاً من قراءة قصيدة كولردج « البحار العتيق » . وأما اللورد بيرون فله المقطعات الجميلة فى مجموعة قصائده المسماة « ساعات الكسل » «The hours of Idleness» وكلها خفيفة على الروح، ولا بأس من أن تقرأ له قصيدته الطويلة المسماة «سجين شيلون » والتى كتبها بعد هجرته لانكلترا ، وكان عائشاً مع صديقه الشاعر شيلى، وليست هذه القصيدة مما يعد فى الدرجة الأولى من شعره ولكنها

مثال من رقى فكره وحماس روحه. وإذا أردت أن تعرف مقام شعر هومير وتأثيره على شاعر انكليزى من شعراء الدرجة الأولى، فاقرأ القطعة التى قالها كيتس عند أول اطلاعه على ترجمة تشابمن لشعر «هومير» واقرأ كذلك لكيتس قصيدته البليغة التى عنوانها « مساء سانت أجنس St. Agn's Eve » وهى طويلة فى نحو اربعماية بيت من الشعر

واقرأ كذلك بامعان بل واحفظ عن ظهر قلبك المرثية التى قالها شيلى فى صديقه كيتس واسمها Adonais ومطلعها

I weep for Adonais, he is dead

وأما كتاب النثر فى هذا العصر فاكتف بالقليل من روايات والترسكوت واقرأ كذلك تاريخ حياة اللورد نلسون بقلم « سوذى » واكتف من مؤلفات كارليل بالجزء المهم من (الأبطال وعبادة الأبطال) سيما الجزء الخاص منه بالنبى محمد (ص) وله كتاب آخر كتبه فى أول عمره عن حياة شيلر الشاعر الألمانى، فأنه فضلا عن كونه سهل المأخذ، فأنه يعطيك فكرة عامة عن آداب اللغة الألمانية. ويشوقك إلى التوسع فى هذا الباب ولا يفوتنك أن تقرأ لكونتسى De Quincy كتاب (اعترافات آكل الافيون) فان اسلوبه فيه بديع جميل . والآن انبهك إلى أرق كتاب الانكليز واعلاهم كعباً فى النثر الآخذ بمجامع القلوب ، واعنى به اللورد ماكولى، فله المقالات الانتقادية التاريخية والأدبية وهو فى نثره كالسيل المنحدر من عل ، يأخذ كل شىء فى طريقه ، فلا تكاد تبدأ فى رسالة حتى تجد نفسك مأخوذا بقراءتها إلى أن تنتهى منها على طولها ، وأفضل مقالاته ـ إن صح التفاضل

بينها ـ الرسائل الآتية التى انصحك بقراءتها فانها فضلا عن جودة انشائها الذى هو السحر الحلال ، تفيدك فائدة عامة فى تقدير درجات الكتاب والشعراء ورجال السياسة الذين كتب عنهم ، فاذا انت قرأت رسالته الأولى عن ملتون ومؤلفاته عرفت قيمة هذا الشاعر ومواضع النقد عليه ، وحالة العصر الذى كان فيه ، ثم رسالته عن ما كيافلى الايطالى مؤلف كتاب (الامير) الذى ترجم إلى العربية اخيراً [1] ، امكنك أن تعرف حالة إيطاليا فى الزمن الذى عاش فيه ما كيافلى وعرفت الأسباب التى حملته على وضع كتاب الأمير المشهور بالحث على الخداع والمكر والحيلة والدهاء فى السياسة ، ثم رسالة عن جون دريدن الشاعر الذى ذكرته لك ، وفيها بحث دقيق عن المخيلة الشعرية والفنون الجميلة ونسبتها الى رقى الامم وتهذيبها ، ثم رسالة عن علم التاريخ ونقده وهى آية الآيات ، ولا غرابة فاللورد ما كولى أحسن من كتب فى التاريخ الانكليزى . وليس من الضروري لك أن تقرأ كتابه الذى وضعه فى ست مجلدات عن تاريخ انكلترا إلا إذا اشتاقت نفسك للوقوف على أسلوبه التاريخى أو أردت أن تقرأ تاريخ ذلك العصر بالتفصيل . وللورد ما كولى مقالة عن اللورد بيرون كتبها بمناسبة وضع المستر مور تاريخ حياة اللورد بيرون ، وفيها الانتقاد المر على سلوك اللورد بيرون وتقدير مزاياه الشعرية . وله كذلك رسالات مهمة جداً عن الدكتور جونسون ، وميرابو خطيب الثورة الفرنسية ، ووالوبول ، ووليم بت ، واللورد باكون ، وهذه الأخيرة من افضل ما كتب ، وهى تصف لك مقام اللورد

(١) ترجمه الصديق الفاضل الاستاذ محمد لطفى جمعه

باكون فى عالم الفلسفة وتشرح لك حياته وكيف مع سمو علمه وعقله قد تلوث بقبائح لا تليق بمثله ، ورسالة عن وارن هاستنج فاتح الهند يعدها الانكليز احسن ما كتب اللورد ما كولى ، بل اغلى الجواهر فى تاج اللغة الانكليزية ، ومنها تعرف المهم من تغلغل الانكليز فى احشاء البلاد الهندية وسلوك هاستنج المعيب ، وحملات ادمون بورك عليه فى مجلس العموم ، ولن تفوتنك مطالعة هذه الرسالة بامعان ان لم يتيسر لك الاطلاع على الرسائل الاخرى . وله أيضاً رسالة فذة عن فردريك الكبير امبراطور الألمان وعلاقته بفولتير وهى من الاجادة بمكان . وله كذلك رسائل عن اديسون وكتاباته ، وجولد سميث ، وكلها جديرة باطلاع من يريد أن يأخذ من اللغة الانكليزية بقسط كبير .

ولقد اطلت لك عن اللورد ما كولى لأنى من المغرمين بقراءته ، وعندى أنه يحسن بمن كان ذا ميل الى التمكن من لغة ما ، أن يعجب ، وان شئت فقل ، أن يتعشق عدداً قليلا من كتابها فى النثر والنظم ، وقد قال أحد حكماء الانكليز فى هذا الصدد الكلمة الآتية ، التى انقلها لك بالنص الانكليزى

There can be no doubt that a first-hand acquaintance for or still better, a friendship with three or four of the best English writers, is worth a great deal more than a mere general survey of the whole range of our literature.

وهذه الكلمة تصدق على دراسة ومعرفة أية لغة من اللغات ، وبها اختم المقال فى هذا الباب وأدعو لك بالتوفيق والنجاح

الرسالة الحادية عشرة

الترجمة

ولدى العزيز

انى فيما أبعث به اليك من هذه الرسائل ، أضع دائما نصب عينىّ ما أوملة لك من المستقبل الزاهر ، والحياة الطيبة، الحافلة بصالح الأعمال، وجميل المفاخر. وكثيراً ما أخلق فى مخيلتى صورة من صورتك ، فى سن اكبر من سنك الحاضر، فينشأ عندى شعور بما قد تحتاج اليه فى ذلك السن من المعارف والمعلومات والاستعدادات التى تعينك على عملك ، وتمهد لك سبل النجاح ، والفوز على الأقران، فيشتد بى الشغف بأمرك ، وأحن الى عهد الشباب وأذكر ما خسرته وما كسبته ، وما كان من حق أن أناله ، لو لم أخطىء الطريق . . .

وذو الشوق القديم وان تسلى مشوق حين يلقى العاشقينا

ولست ممن يضربون فى بيداء الأوهام، ويطيرون فى فضاء الأحلام، فينسون ظروف بلادهم، وحالات الوسط الذى سينشأ وينمو ويجاهد فيه ولدهم ، فيضعون له من الخطط مالا ينطبق على أحوال زمانه ، وظروف مكانه ، ويلقون عليه من النصائح مالا يوافق الهيئة الاجتماعية ، والحالات النفسية. للأقوام الذين سيحيي ويموت بينهم. فلذا ستجدنى، فى كل ما اكتبه لك، منصرفا إلى الوجهة العملية، فى باب تربيتك العلمية ، وتهذيبك العقلى،

مقتصراً على ما اعتقد أنه لازم لك لتسنم غارب المجد، واكتساب الثناء والحمد، مع هناء الخاطر، وراحة الضمير

فأنا مقدر لحالة الوسط الذى ستنشأ فيه ، وعارف بضرورة تفوقك على الأقران فى استعدادات خاصة ، تقضى على معاصريك بالالتجاء إلى معارفك، والاعتماد على كفاءتك، كيفما كانت منافستهم لك ، وشدة رغبتهم فى اقتناص الفوائد دونك

فمن هذه الاستعدادات الخاصة ، التى يجب أن توجه اليها عنايتك، التفوق على غيرك فى إحسان الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية وبالعكس، لأننا يابنى، كما سبق لى القول، فى بلاد احوالها استثنائية، وظروفها غير عادية ، إذ نحن فى دور انتقال يقضى علينا بالأعتماد على معارف أوروبا من أدبية وعلمية وصناعية وتجارية، وتحتم علينا حسن التفاهم معهم ، وإيقاف قومنا على أحوالهم، ومستحدثاتهم ومنشأتهم، وإيقافهم على حاجاتنا ورغباتنا ووصلة هذه الحال هى الترجمة، فالاجادة فيها ضرورية لمن يتطلب العلى وكسب الفخار، والميزة على الأقران، سيما فى هذه الديار. والترجمة عمل شاق والتفوق فيها يحتاج إلى ممارسة طويلة ، ودقة فى العمل، وسلامة فى الذوق، وتمكن من اللغات التى تطلب الترجمة منها واليها

مارست الترجمة زمناً طويلا وسبرت غورها، وذقت حلوها ومرها، ولو انى رزقت بمن أنار لى الطريق بمصباح خبرته، لهان علىّ بعض أمرها، فلعل آثار أقدامنا فى رمالها — تلك الآثار التى أرسمها لك — تهدى ضالا إلى منهج الصواب وساحل السلامة

لكل لغة من لغات العالم مميزات عن غيرها كما تتميز الشعوب لتماثلها لأخلاق المتكلمين بها، وطبائع المكونين لأساليبها، وتوجد فى كل واحدة تعبيرات ذات لون من ألوان المعانى، وتصوير الفكر الانسانى، تخالف فى بعض ظلالها وتجمع مفرداتها، ما يكون فى الأخرى، مما هو معبر عن ذلك الغرض. ولهذا كانت الترجمة على وجه عام بين كل لغة واخرى محتاجة إلى مجهود ودقة وذوق، وهى بين اللغة العربية واللغات الأخرى اكثر صعوبة، وأحوج إلى مجهود أكبر — ذلك لأن اللغات الأوروبية التى تطلب الترجمة منها واليها، كالانكليزية والفرنسية لغات آرية، لها أسلوب يخالف الأسلوب العربى السامى. ولطالما خيل لى أن منهاج التفكر، وطريقة الاقيسة العقلية، فى الكلام والتعبير عن الأغراض، يتباين كثيراً بين الشرق والغربى، ولهذا أسباب يطول شرحها ويحتاج بيانها للخوض فى بسيكولجيا الطبائع الشرقية والغربية،

ولكن لا مندوحة مطلقاً من القول، بأنه إن اختلفت التعبيرات، وتباينت أساليب العربية مع اللغات الاجنبية، فان الفكر العام، والغرض المقصود من الكلام، واحد يشترك فيه كل العقول. ولهذا يتحتم على من يتصدى للترجمة الطيبة أن يبدأ أولا بالتمكن الأمكن من فهم ما يريد ترجمته، ويصح أن أقول متوسعاً فى العبارة، إن الفهم وحده لا يكفى، بل لا بد من الدخول فى روح الكاتب والاحساس بمثل شعوره، والتأثر بروح غرضه، حتى يتسنى لمن يريد ترجمته إلى لغة أخرى، أن يؤدى، فيما يكتبه، الجزء الأكبر من ذلك الاحساس والشعور والغرض، إن لم يكن

كله. وهذا نهاية الاتقان فى الترجمة وقل من يصل اليها مع الدقة والذمة

وبعبارة أخرى إنك لا تجيد الترجمة وتمتاز فيها، إلا إذا كنت قد أتقنت كل الاتقان اللغة التى تترجم منها، واللغة التى تنقل اليها، وا كثر ما يعرض عليك فى مستقبلك من هذا العمل، الترجمة من اللغات الاوروبية « الانكليزية والفرنسية بنوع خاص » إلى لغتك العربية، فمتى استطعت أن تكون مجيداً للعربية متقناً لها واسع المادة فيها، سهلت عليك الترجمة لأن سعة مادتك، وسهولة التعبير، وسياسة الالفاظ، تلين لك حديد الترجمة حتى لا تشعر بما فيه من غضاضة. وأما إذا دعيت للترجمة من العربية إلى غيرها فأول ما يجب عليك أن تنتقل بعقلك وتصورك إلى اللغة التى تترجم لها. لا تنقل جملة فجملة، ولكن افهم الغرض الصحيح فى العربية وانقل هذا الغرض بحذافيره إلى اللغة الاخرى بالاسلوب والتعابير والالفاظ، حتى لا يشم قارؤها من أهل تلك اللغة، رائحة الأصل المنقول عنه

ولشديد رغبتي فى أن أسهل لك طريق الترجمة الوعر أذكر لك بعض الارشادات التى أظنها مفيدة فى هذا الباب بقدر ما وصلت اليه خبرتى الناقصة، وهمتى العاجزة، فأقول: إن الترجمة على أنواع شتى فما يصلح، بل ويلزم، فى نوع من الأنواع، لا يصح ولا يتحتم فى نوع آخر

فالترجمة اما علمية، واما أدبية، واما اجمالية، واما شفوية، فالترجمة العلمية هي مثلا من قبيل ترجمة كتاب فى فن من الفنون كالطب أو الهندسة أو البيداجوجيا أو القوانين، وماشابه ذلك وجرى مجراه من علوم الاقتصاد السياسى والبسيكولوجيا « علم النفس » والسوسيولوجيا

« علم الاجتماع » . ومن هذا النوع أيضاً ، وان لم يسمى « بالعلم » ، ترجمة الاوراق السياسية ، والمخابرات الدولية ، والتقارير القنصلية ، والمذكرات المالية والقضائية ، مما تجب فيه الدقة وملاحظة الأصل ، لأن مجرد اختلاف لفظ عن لفظ ، وان تشابها فى المعنى ، يزحزح العبارة المترجمة عن الغرض الذى وضعت له بقصد وتحديد

ومما تجب ملاحظته على المترجم فى هذا الصدد ، انه قل أن توجد كلمتان مترادفتان من الفاظ المعانى — لا المسميات — تؤدى معنى واحداً بالضبط ، إذ لا بد هناك من ظل خفيف لكل كلمة ولا سيما بارتباطها بغيرها بحيث تتغير ظلال المعانى ومرامى الأغراض الكلامية تبعاً لاختيار اللفظ المرادف ، وما يجاوره من الألفاظ الأخرى . ولذا كانت الترجمة فى هذا النوع من أصعب الأمور ، ولا تلين عريكتها للمترجم الا بعد مزاولة طويلة ، وخبرة تامة بمعانى الاصل ، الذى يترجم منه ، وسعة اطلاع على نوع اللغة التى وضع فيها ذلك الأصل ، لان لكل فن لغة خاصة به . فلغة القوانين والانظمة الادارية . غير لغة السياسة .. وهلم جرا . ونصيحتى لمن يزاول ترجمة من هذا القبيل أن يعالج الفاظ اللغة التى يترجم اليها ويدقق فى اختيارها ، ويقلب التراكيب المختلفة على اشكالها ، حتى يتم له المراد ، ويصيب شاكلة الصواب ، ويقتنع ضميره ، وترتاح ذمته إلى ما اختاره للتعبير عن غرض الكاتب تماماً .

ومما يزيد صعوبة الترجمة إلى العربية ، أن لغتنا ، على سعتها وكثرة الفاظها وتعدد مترادفاتها ، ولين عودها للتعبير عن الأغراض المختلفة ، قد وقف بها أهلها عند درجة من الجمود على القديم من أساليبها ، حتى ضاقت فى ظاهرها

عن احتمال الافصاح عن الاساليب العلمية ، والاشارات الاجتماعية ، والمناحى السياسية ، التى اصطلح عليها كتاب العصر الحاضر . هذا فيما يختص بالتراكيب والأساليب ، فكيف مع وجود النقص الظاهر فى اللغة العربية من الالفاظ العلمية التى تؤدى تمام المراد من المنشئات الحديثة والآلات العلمية والمسميات الفنية . وقد انقسم أهل العربية الى أحزاب فى كيفية اصلاح هذا الخلل ، فقال فريق بصقل الكلمات الاعجمية وتحويرها بعض التحوير الحرفى لتناسب اللهجة العربية ، والأعتماد على هذه الكلمات وادخالها فى المعجمات كما كان يفعل اسلافنا

وهذا رأى انصار التقدم العصرى والنمو الطبيعى . وقال فريق بنحت أو اشتقاق أو اختيار الفاظ غريبة محضة ، والاتفاق عليها بجماعة من أئمة اللغة ، واتخاذ هذه الكلمات العربية الأصل للدلالة على الاصطلاحات الحديثة ، وبذلك لا يدخل على اللغة غريب عنها نافر منها . وانصار هذا الرأى هم المحافظون على القديم . ووثب فريق آخر الى التطرف والقول بترك العربية واتخاذ لغة التكلم العصرية التى يسمونها العامية (وهذه التسمية متساهل فيها) ، لغة الكتابة والعلوم والتعليم . ولكل مذهب من هذه المذاهب الثلاثة انصار يؤيدونه ، ولكل فريق حجته ونغمته ، ولو كنت اكتب هذه الرسائل بقصد البحث فى موضوع مهم كهذا ، لتحتم علىّ ابداء رأى ، ولكنى انما اكتبها بقصد ارشادك الى الوسائل والمعارف والتربية التى تربى خلقك وتهذب نفسك وتكون عقلك للفوز فى معترك الحياة ، ازاء ما هو موجود ، لا ما يمكن ان يكون ، أو يحسن ان يكون .

ولهذا لا احب لك أن تدخل فى غمار مناقشات ومجادلات ، لأن المهم عندى هو أن تتفوق على غيرك ، بكل ما تستطيع أن تتفوق به ، فان كانت نهاية الفخر وتسنم غارب المجد، بالاجادة فى كتابة العربية الفصحى والتعبير بها عن اغراضك فخذ منها بأوفر قسط ، وان كان من الفخار فى زمانكم، النبوغ فى الكتابة والترجمة بلغة التكلم العصرية، فبرز فيها على الاقران وليكن سلاحك كسلاح اندادك ، ولكل زمان أحكام ، وقد قيل علموا أولادكم فأنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم

ولنعد إلى الصنف الثانى من الترجمة وهو الترجمة الأدبية ، والذى أريده من هذا النوع هو ما يكون على مثال ترجمة القصص الخيالية، والروايات الأدبية أو التاريخية ، أو فصل من فصول كتاب فى الأخلاق أو التربية أو العادات أو السياحات، وما اشبه ذلك، مما يراد به ترجمة المقصود من مجموع الموضوع ، دون التقيد بالنصوص أو المحافظة على معانى الفاظ أو جمل خاصة . والمهم فى هذا النوع الاكتفاء بغرض الكاتب الأصلى فان كان يدعو الى فضيلة، أو يحذر من رزيلة بعبارات قوية وأسلوب منطق، فلتكن ترجمة المراد منه كذلك بلغة تناسب المقام وبمعان تؤدي غرض الكاتب.

ومن هذا النوع ترجمة الشعر والحكم النثرية وما يجرى مجرى ذلك من الكلام البليغ والشذرات الممتازة بدقة الصناعة، وحلاوة اللفظ، وفى هذا يتحتم عليك إن كنت تعرب شيئاً من هذا النوع أن لا تتخير الالفاظ التى تؤدى بالحرف معانى الكلمات التى تترجم عنها ، فانك ان فعلت ذلك ، فلن تستطيع أن تخرج ، لمن تترجم لهم، صورة تشابه الصورة الأولى ، بل

عليك أن تؤدى بالمعنى الواردة فى الشعر أو النثر بعبارة عربية فصيحة مطابقة فى بلاغتها العربية ، بلاغة الأصل فى لغته الأجنبية . واجتهد أن تجعل له فى لغتك رنة فى الصوت ، ونغمة على السمع، تشابه رنته ونغمته ، فى لغته، ولا يكون ذلك سهلا عليك إلا اذا كنت مالكا لناصية البيان، مع شىء من العناية والأختيار اللفظى . وانى وان كنت لا احب أن اضرب لك الأمثال كما قلت ، لانى عندك غير مطالب بالدليل على صحة ما أقول ، الا أنى اخرج عن مألوف ذلك فاضرب لك هنا مثلا صغيراً من تخير اللفظ ونغمة القول .

من الكلمات الشعرية لملتون قوله

The mind in its own place,
Can make a hell of heaven and a heaven of hell.

فلو قلت «العقل فى مكانه يجعل من النار جنة ومن الجنة ناراً» فهى ترجمة صحيحة لا بأس بها، ولكن لو وضعت مكان النار « الجحيم » ومكان الجنة « النعيم» وقلت « العقل وهو فى مكانه يخلق من الجحيم نعيما، ومن النعيم جحيما» لكانت عبارة الترجمة افصح لفظاً وأقرب إلى الاصل نغمة ورنة

ومع هذه الترجمة أيضاً قد يشكل على بنى قومك المراد من هذا التعبير فاذا أنت خرجت عن التقيد باللفظ، وقلت « سعادة الانسان وشقاؤه فى عقله » . . . « السعادة والشقاء معنيان يرجع التقدير فيهما للعقل » فانك تكون قد ترجمت الشعر الانجليزى وشرحته فى آن واحد .

ومن هذا النوع فى الترجمة الأدبية ، ترجمة الأمثال والحكم شعراً

كان أو نثراً ، وترجمة الكلمات المأثورة . فى هذه يجمل كثيراً بالمترجم الحصول على ما يقارب الأصل فى اللغة المترجم اليها فيأتى به منثوراً أو منظوماً أو مأثوراً ، ويكون ذلك العمل بمثابة الحلية والتجمل فى الترجمة . مثال ذلك ترجمة العبارة الانجليزية الآتية :

He who has a thousand friends,
Has not one to spare.
And he who has an enemy,
Meets him everywhere.

فى بيت من الشعر العربى وهو :

وما بكثير الف خل وصاحب وان عدوا واحداً لكثير

فلو ترجمت العبارة الانجليزية هكذا مثلا « من كان له ألف صديق لا يهون عليه التفريط فى واحد منهم ، ومن كان له عدو واحد يلقاه فى كل طريق » — لما كان هذا خطأ ، بل هو غاية الصواب ، ولكن اذا جئت بدل تلك العبارة الطويلة بذلك البيت من الشعر على نغمته وطلاوته ، تكون قد برهنت على سلامة ذوق ، ولطف اختيار ، وسعة اطلاع ، لأنه فى مثل هذه الترجمة الأدبية لا يطلب منك التدقيق الذى يطلب فى الترجمة العلمية أو فى المسائل السياسية والقانونية ومايشابهها

خذ مثلا آخر ، يستعمل الأجانب الكلمة اللاتينية الآتية استعمالا شائعاً وهى « Quid pro quo » وتعريبها « شىء فى مقابل شىء » « واحدة بواحدة » ، « دقة بدقة » فاذا جئت لتعريبها فى خلال كلام عام ، فأول ما يلزمك هو تفهم المقام الذى وضعت فيه فان كان ورودها فى مقابل

الاساءة بالاساءة ، فاستعمل عبارات « دقة بدقة » ، « واحدة بواحدة » ، وإن كانت فى مقام مقابلة الجميل بمثله ، فيجب أن تعربها بعبارة : « ما جزاء الاحسان إلا الاحسان » أو ما شابه ذلك

فمن هذا يتضح لك يا بنى ان الترجمة الأدبية تحتاج الى الروية والادراك وسلامة الذوق

واما الترجمة الاجمالية فهى من قبيل نقل الملخصات الى لغة أخرى وهى على درجات بنسبة مايراد تلخيصه . فقد يكون المطلوب تلخيص تقرير طويل أو كتاب صغير فى رسالة موجزة ، وقد يكون المطلوب وضع ملخص لا يقل فى قيمته وتأدية الغرض المقصود منه ، عن الأصل المطول . وقد يكون الغرض مجرد تأدية فكرة عامة عن بحث كبير ومطلب عويص . ففى جميع هذه الأحوال تلاحظ الرغبة والفكرة الأساسية . وعلى مقتضاها تكون الترجمة من حيث الدقة والطول والقصر ، وفى كل هذا يكون المرجع للذوق وحسن الاختيار

وبالطبع يجب أن تلاحظ فى هذه الترجمة الاجمالية الفكرة الداعية اليها ، فان كنت موظفاً مثلا أو تابعاً أو مشتركا فى عمل عام ، كعضو فى لجنة أو جمعية ، وكلفت أن تضع ملخصاً بالعربية لكتاب أو لتقرير باللغة الانجليزية . ففى هذه الحال يجب عليك أن تتلقى أمر رئيسك ، أو تتفق على القاعدة المطلوبة مع زملائك ، حتى لا تخطىء فى تقدير المطلوب من الترجمة الاجمالية ، لكى يجىء الملخص الذى تضعه باللغة العربية ، على قدر المطلوب منك لا أقل ولا أكثر . ولكن مما يزيدك حسناً ومنزلة عند رئيسك

والعاملين معك ، أن تكون موضع ثقة وحسن ظن ، بحيث لا يجرأ هذا او اولئك ، على القاء تعليمات اليك ، ويكون الأمر فى تقدير التلخيص متروكا إلى ذوقك السليم ، وبحيث لا يكون ثمت خلاف فى تقدير ما ارتأيت أنت تقديره . يجب عليك يا بنى ، أن تكون من المنزلة فى اللغة الأجنبية والعربية ، ومن المنزلة فى حسن الأدراك وتصوير الغرض المقصود من هذا الصنف من الترجمة ، بحيث يعترف لك بالأفضلية على سواك ، وبالثقة التامة فى عملك وذوقك وكفاءتك . وحين تحصل على هذه الدرجة ، وليس ذلك بالأمر الهين ، يصبح فى مقدورك ان تملى إرادتك على رصفائك وزملائك ، بل وعلى رؤسائك (بأدب ولطف) . وهذه هى المنزلة التى أريدها لك وأحثك على الوصول اليها ، فى مثل هذا الموقف ، إذا قدر الله لك الوجود فيه

وأما الترجمة الشفوية فهى أن يطلب منك نقل عبارة يلقيها خطيب أجنبى الى لغة قومك ، أو تكون واسطة الحديث بين جماعة من الاجانب وأبناء لغتك ، وفى كلا الحالين يجب التنبه واليقظة والاسراع فى فهم المراد من اللغة الأجنبية ونقله الى العربية (أو بالعكس من ذلك) بقدر ما يمكن من الدقة والضبط وحسن التصوير . فى هذا النوع من الترجمة لا يمكن ـ فى الغالب ـ المحافظة على الأصل أو التعريب اللفظى ، ولهذا يلزمك أن تمرن نفسك على اختصار المهم من الكلام فتقول « ان المتكلم يريد أن يفهم سامعيه كيت وكيت » وتتحمل على نفسك تبعة الرأى الذى تلقيه لأنك فى الواقع ونفس الأمر مسؤول عن عباراتك لأن الطرف الذى

تنقل له القول لا يفهم لغة الطرف الثانى

أما وقد أشرت الى ما تتحمله من تبعة الترجمة ، فانى اذكرك بأن أول واجبات المترجم الصدق والاخلاص وتأدية واجبه بكل أمانة وذمة . فسواء كانت الترجمة علمية أو أدبية أو اجمالية او شفوية فأول ما تضعه نصب عينيك الأمانة فى النقل وأن تجعل ضميرك رقيباً عليك حتى تكون شريفاً فى عملك ، وموضع ثقة فى قومك . وبهذه الصفات تنجح فى حياتك وتحسن سمعتك ، ويعلو صيتك ، ويرتفع ذكرك

والله المسؤول أن يسدد خطواتك ويوفقك إلى خدمة لغتك العربية بما تنقله اليها من المعارف والعلوم الأجنبية . وأستودعك الله الى رسالة اخرى .

الرسالة الثانية عشر

التاريخ

ولدى العزيز

من العلوم التى أحب لك أن تميل اليها ، وتنصرف بشىء من الرغبة الخالصة نحوها ، علم التاريخ. وما أدرى لماذا أنا أحب لك الاشتغال بهذا الفن ، لا كحرفة، فهو ليس بالصناعة ـ اللهم إلا إذا تقدمت الأمة المصرية والأمم العربية بوجه عام، تقدماً كبيراً فى ميدان العلوم والمعارف بحيث يمكن للمؤرخ أن يتخذ التأليف فى هذا الفن حرفة . وفى أوروبا كثيرون من أهل الفضل يعيشون من ثمن مؤلفاتهم سواء فى فن التاريخ أو غيره .

قلت انى لا أدرى لماذا أحب لك الانصراف بشىء من الرغبة الى فن التاريخ ، وربما كان مرجع ذلك ميلى الخاص إلى هذا الفن ، أو لأنى مع هذا ، أرى فيه فوائد جليلة تخفى على الكثيرين ممن لم يدرسوه أو لم يقرؤه بالروح التى يجب ان يدرس ويقرأ بها .

التاريخ من ألذ العلوم والفنون ، إذ هو قصص الأمم الغابرة . حياة الرجال النوابغ . أمثلة من الفضل والفضائل . صورة من الأخلاق البشرية فى مختلف العصور . موعظة الأفراد والأمم . أو كما وصفه أحد كتاب الانجليز فقال : « التاريخ تدريس الفلسفة بضرب الأمثال »

« History is philosophy teaching by example »

التاريخ يا بنى من الفنون التى تبعث فينا الرغبة الى التحلى بالفضائل لما نقرأه عن عظماء الرجال الذين امتازوا بالصفات العالية الفاضلة مما كان سبباً لتخليد اسمائهم ونقشها على أحجار الأبدية

والتاريخ من الفنون التى تبعث فينا ، بل وتغذى ، عاطفة التطلع الى المجد وارتقاء سنام العلياء تشبهاً باولئك الرجال الذين نقرأ عنهم ، ونميل بجوانحنا الى ماضيهم . واذكر كلمة الشاعر الأمريكى (لونجفلو) « ان تاريخ حياة الرجال العظام تؤكد لنا ان فى امكاننا ان نجعل حياتنا عظيمة مثل حياتهم »[1] وانى الفت نظرك فى هذا الصدد الى الخطاب الثانى من خطابات اللورد « تشستر فيلد » لولده فقد ذكر له فى أهمية دراسة تاريخ الرومان والاعتناء به ، ما يجدر بك مطالعته فى اصله

والتاريخ كما يدرس فى المدارس المصرية جاف الطبع ، جامد العبارة ، وقليل الفائدة ، لأن الخطة التى جروا عليها فى وضع عصور التاريخ الكبيرة ، فى كتب موجزة صغيرة ، ومادة قليلة قد جعل دراسة التاريخ لطلاب العلم فى المدارس كأنه فرع من الفروع المختلفة للتعليم ، فى حين انه يجب ان يكون تلقى هذا العلم ، والحث على الشغف به ، وتقدير قيمته العلمية ، وأثره فى التربية الأخلاقية ، وأثره كذلك فى تفهم السياسة العامة ، وفلسفة الاجتماع ـ على طريقة قائمة بذاتها . أضف الى هذا ان التاريخ كما هو

---

(1) Lives of great men all remind us
We can make our lives sublime,
And departing, leave behind us,
Foot prints in the sands of time.

الآن فى الكتب العربية المتداولة بيننا سيء الوضع، سيء الأسلوب، فمنه ما هو موضوع على الطريقة القديمة من الاسناد وتبويب الحوادث بالأعوام، كتاريخ الطبرى، وابن الاثير، ومن جرى مجراهما، ومنها ما هو مشوش العبارة مملوء بالأغلاط والمبالغات والأوهام، ومنها من خلط فيه واضعوه الأدب بالتاريخ، والحقائق بالاكاذيب، الى غير ذلك من التطويل الممل. واذا نظرنا الى الكتب الحديثة المدرسية وجدنا ان اكثرها مقتضب مبوب مملوء بأسماء الملوك والحكام والأمراء وتواريخ حكمهم ومدة دولتهم، كأنما التاريخ عبارة عن نظرية هندسية، أو معادلة جبرية، مع ان التاريخ قصص وأخبار ومشاهدات وملاحظات بحيث يجب أن توجه العناية الى تدريسه بطريقة خلابة جذابة، ولو يقتصر فى كل سنة من السنوات المدرسية على عصر من العصور، أو دولة من الدول

وعندى بالنسبة لشخصك يا بنى بعض ملاحظات وآراء أحب أن أبعث بها اليك فى هذه الرسالة لعلها تفيدك، أو تؤدى الى حث نفسك للاغتراف من بحر هذا الفن الجليل بحيث تكون لك منه فائدة ولذة فى آن واحد.

قلت لك أن التاريخ قصص الغابرين، فهو أشبه بالروايات الخيالية التي تقرؤها وقد وصفه أحد الكتاب الانجليز فقال: « التاريخ يبتدىء قصة وينتهى بحثاً » وهذه هى كلمته الانجليزية

History begins in novel and ends in essay.

ومقدار الشغف بمطالعة الروايات وحب قراءة تواريخ الابطال

والرجال العظماء، يمكن أن يحولا لدراسة التاريخ. أما وضعه على طريقة الكتب المدرسية الصغيرة — تاريخ اليونان، تاريخ الرومان، تاريخ العرب، تاريخ المصريين، مع جداول بأسماء الملوك والاسر، وما أشبه ذلك، مضافاً الى سنى الحكم وسنى المواليد والوفيات الى غير ذلك من البيانات، فانه متعب جداً ولا تأتى منه فائدة مطلقاً، بل ربما كان ضرره اكثر من نفعه، لأنه عبارة عن حشو الدماغ، وإجهاد الذاكرة بمجموعة أرقام وأسماء، لا يبقى منها بعد تمضية الامتحان لا قليل ولا كثير

وعندى انه يجب أن يبدأ فى دراسة التاريخ بفترات من الزمن حول أسماء الرجال الذين هم سبب التاريخ او الذين « عملوا » التاريخ كما يقول الانجليز « Made history »، ثم تنشأ حول كل رجل من اولئك الرجال العظام من ملوك وقياصرة، وقواد، وغزاة وفاتحين، وحكام سياسيين، وهلم جرا، هالة من التاريخ العام تنمو مع الشخص، وتجمع فى جوفها كل مايحيط به ويرتبط بمركزه وزمانه ومكانه وعمله من تواريخ البلدان الاخرى، ثم أهل زمانه وأحوالهم السياسية والدينية والاجتماعية. فاذا أخذت مجموعة من عظماء الرجال مثل اسكندر المقدونى، ويوليوس قيصر، وعمر بن الخطاب، ومعاوية بن ابى سفيان، وعمرو بن العاص، وصلاح الدين الايوبى، ومحمد الفاتح، ونابوليون بونابرت، ومحمد على باشا . . . مثلا. ثم خصص لحياة كل رجل من هؤلاء الرجال دراسة خاصة مفصلة تبدأ بقصص وروايات عن نشأة اولئك الرجال، مع حكايات مختصرة عن آبائهم

وقومهم واقليمهم وأيام فتوتهم، وتكوين رغبة ما قاموا به فى ادمغتهم، ثم توضع لهم صور مختلفة تمثل كل فرد منهم فى دور من أدوار حياته، وكذلك تعد خرائط جغرافية للبلاد التى نشأوا فيها، والتى قاموا بأعمالهم العظيمة فى جوانبها. فاسكندر المقدونى ترسم له خريطة عن اليونان وجزرها وآسيا الصغرى وبلاد العجم والهند ومصر، وعمرو بن العاص ترسم له خريطة عن جزيرة العرب ومشارف الشام ومصر، وترسم لمثل نابوليون بونابارت خريطة لفرنسا وايطاليا والنمسا والجزء الشرقى من البحر الأبيض المتوسط يجمع مصر وسوريا. وهكذا وهكذا.. ثم يحسن أن ترسم على هذه الخرائط، بخطوط حمراء أو صفراء، الطرق التى سلكوها فى غزواتهم، وبعبارة موجزة تصور لهم حياة كل رجل من اولئك الرجال العظام رواية لذيذة يقبل عليها الطلاب بشغف زائد وتعلق فى أذهانهم بحيث تكون جزءاً من حياتهم

ثم متى رسخت عندهم تلك الفترات التاريخية، يؤخذ فى أسباب ربطها بالتاريخ العام، فتذكر انه فى هذا الوقت الذى كان يجرى فيه كذا وكذا فى تاريخ الرجل الذى تتكلم عنه، كانت الأحوال فى الممالك الأخرى هنا، أو هناك، على شكل كذا وكذا. ولنضرب مثلا بتاريخ يوضع لحياة عمرو بن العاص وأثره فى تاريخ الاسلام والشرق.

لدراسة تاريخ هـذا الرجل يجب أن يوضع له بحث خاص فى نشأته الأولى فى الجاهليـة، وماذا عرف عنه، ومع هذا شىء عن العرب فى الجاهلية وأشعارهم واخلاقهم ومواسمهم وأديانهم، ثم نشأة عمرو فى الاسلام والفتوحات الاسلامية العامة حتى زمن عمر بن الخطاب، ويذكر عنه شىء

عرضاً، ثم يبحث فى: هل زار عمرو بن العاص مصر قبل فتحها؟ وكيف عرفها؟ وماذا كانت غايته من الزيارة الأولى؟ وما هى الأسباب التى دعته لتحريض عمر بن الخطاب على فتح مصر؟ وهل كان واقفاً على حقيقة أحوال مصر السياسية والاجتماعية، والخلافات الحزبية والدينية فيها؟ ثم كيف كانت حالة مصر الجغرافية والاقتصادية فى ذلك الوقت؟ وهلم جرا، وعلى هذه الطريقة يلم الطالب بتاريخ العرب ونشأة الاسلام، والخلفاء الراشدين، والفتوحات الاسلامية وفتح مصر، وما كانت عليه الأحوال فيها من ظلم الرومان لأهلها، وخلافاتهم الدينية والحزبية التى طالما كانت تؤدى الى اراقة الدماء، وما يتبع ذلك من حال العلم فى مصر فى مدة الرومان، وأخبار مكتبة الاسكندرية والسرابيوم، وما دار حول حرق تلك المكتبة من المباحث والمجادلات، فلا تنقضى هذه الفترة حتى يكون الطالب قد وعى تاريخ عصر من العصور التى يرتبط بها تاريخ العالم، والذى يهم الشرقى والمصرى، والمسلم بنوع خاص[1]

---

(١) هذه الرسالة كتبت فى النصف الاخير من سنة ١٩١٣ ويسرنى ان اذكر اليوم انى اطلعت على كتاب جليل الفائدة عظيم القيمة فى هذه الفترة التاريخية عن تاريخ عمرو بن العاص، وقد جرى المؤلف من تلقاء نفسه على نفس الاسلوب الذى اردته لمن يضع تاريخ عمرو بن العاص، اما المؤلف الذى اشير اليه فهو الشاب الفاضل حسن افندى ابراهيم حسن، الذى وضع أخيراً رسالة فى تاريخ عمرو ابن العاص نال بها شهادته العلمية من الجامعة المصرية، وقد طبع هذا الكتاب فى فاتحة هذا العام (١٩٢٢) فكان سرورى به عظيما. لأن مؤلفه وضعه على نحو البرنامج الذى وضعته فى هذه الرسالة. فأثنى على المؤلف ثناء عاطراً، وأرجو ان يتحفنا ببحث تاريخى مثل هذا وكذلك ارجو ان ينحو المؤلفون فى التاريخ نحوه

كل ما أوضحته لك فى الطريقة التى يحسن بها دراسة التاريخ من المثل الذي ضربته لتاريخ عمرو بن العاص يمكن بالسهولة اتباعه فى تواريخ الرجال العظام الذين ذكرت بعض اسمائهم ، بل ربما كان تاريخ بعضهم اكثر جلاء ووضوحاً من تاريخ عمرو بن العاص ، لوجود المستندات والكتب المفصلة لأعمالهم ، سواء كان ذلك لقرب زمانهم كنابوليون بونابارت ، او لمصادفة وجود مؤلفات وضعت مفصلة عن زمانهم كيوليوس قيصر مثلا. ومن المباحث التاريخية التي تدخل فى هذا النوع من الاسلوب التاريخى المشوق رسائل اللورد ماكولى « Essays » عن الرجال العظام الذين كتب عنهم مثل كلايف، ووران هاستنج ، وميرابو ، وفردريك الكبير وغيرهم.

وهناك طريقة اخرى فى وضع التاريخ وجعله لذيذاً مرغوباً فى دراسته ومطالعته ، وهى طريقة اختيار نوع من أنواع الحوادث مثل المواقع الفاصلة فى تاريخ الجنس البشرى ، وأعنى بالمواقع الفاصلة، الوقائع الحربية التى لو تم فيه النصر للفريق الذى انهزم وفشل، دون الفريق الفائز، لتغيرت صحيفة الكون ، وتاريخ الجنس البشرى إلى فترة طويلة من الزمن . وأضرب لك من هذا النوع مثلا ، موقعة «تورس» فى فرنسا التى فاز فيها شارل مارتل على عبدالرحمن الفاتح . فلو أن المسلمين فازوا فى هذه الموقعة الفاصلة، لوقعت فرنسا تحت أقدامهم ولثبتوا دعائم المملكة الاسلامية العربية فى قلب اوروبا الى عدة قرون، ولما كان من السهل على اوروبا أن تخرج الاسلام من اسبانيا فى الوقت الذى حصل فيه ، وكذلك من المواقع الفاصلة فى التاريخ استيلاء محمد الثانى على الاستانه

فاذا وضع كتاب عربى موضوعه « المواقع الفاصلة » فيما له علاقة بالتاريخ الاسلامى ، لكان ذلك من المباحث التاريخية الجليلة التى تحبب الطالب فى علم التاريخ ، وتجعله ذا فائدة أدبية واجتماعية وسياسية وقومية.

ومما تجب العناية به فى دراسة التاريخ والاشتغال به، تمحيص المستندات والمصادر التى اعتمد الكاتب المؤرخ عليها ، وتقدير ما لتلك المستندات والمصادر من القيمة الحقيقية . ولم أر من المؤرخين من محص مصادر مؤلفه وعرضها على القراء بنقد صحيح ليكون القارىء على بصيرة بقيمة ما يسند إلى تلك المصادر ، مثل اللورد روزبرى فى كتابه العظيم عن نابوليون بونابرت فى منفاه بجزيرة سانت هيلين[1] فانه بدأ بذكر المصادر التى اعتمد عليها ، وهم اولئك القواد والضباط ورجال حاشية الامبراطور المنفى ، الذين كتبوا عنه ونقلوا أقواله وأحاديثه وتصريحاته وما كان بينه وبين حاكم الجزيرة من المشادة والخلاف والمشاكل. فبعد أن وصف منزلة كل كاتب منهم لدى الأمبراطور، وكيف كان من الممكن أن يكون موضع سره ، وإلى أى حد يصح الاعتماد على رواية للكاتب فى موقف من المواقف، أو مسألة من المسائل ، وما هو ماضى ذلك الكاتب ، وما هى صفاته وأخلاقه ، وما هى آراؤه السياسية والحزبية ، كيما تقدر قيمة الثقة التى يحق له التمتع بها . وعلى هذه الطريقة وضع اللورد روزبرى قاعدة جديدة فى كتابة التاريخ . وقد عولت إن شاء الله أن أسلك هذه الطريقة فى مقدمة الكتاب الذى وضعته عن تاريخ الحملة الفرنساوية ونابوليون فى مصر، إذ يتحتم أن

(1) Napoleon - The Last Fase

يقف القارىء على القيمة الحقيقيـة لأكبر المصادر العربيـة فى تلك الفترة التاريخية وهو كتاب الشيخ عبدالرحمن الجبرتى ، والى أى حد تمكن الثقة بروايته ، وكيف كانت علاقة ذلك المؤرخ بالمماليك أولا وبالفرنساويين ثانياً ، وما هى منزلته فى درجة التحقيق وصدق الرواية ، وما يصح الاعتماد فيه على قوله ، ومالا يصح منه فى الظروف المختلفـة ، ثم مقارنة أقوال ذلك المصدر العربى ، بالمصدر العربى الآخر ، وهو رسالة المعلم نقولا الترك وما الفارق بينهما من وجهة نظر الشيخ الأزهرى المسلم ، والمسيحى اللبنانى ، ـ الى تلك الحوادث والحالة السياسية ، ويتبع ذلك مقابلة هذين المصدرين العربيين بالمصادر الفرنسية رسمية وغير رسمية .

وعندى انه يحسن بك أن توجه عنايتك للتاريخ الحديث ففيه الفائدة وفيه اللذة العلميـة لأن مصادره أقرب للتحقيق ، ومواده اكثر انطباقاً على الشؤون الحاضرة ، ودروسه أشد التصاقاً ، وأقرب شبهاً ، بما يحوط وسيحيط بك فى مستقبل أيامك من الحوادث والظروف والمناسبات السياسية والاجتماعية . لهـذا أحثك على زيادة الاطلاع على المؤلفات فى التاريخ الحـديث ، ولكن لا يمنعك ذلك من الالمام الصحيح بالمهم من التاريخ القديم .

واعلم ان فن التاريخ ليس قاصراً على التاريخ السياسى والحربى للأمم . وأعنى بذلك تاريخ ملوكها وامرائها وأحزابها وحروبها وغزواتها ، بل هناك ماهو أهم من هذا ، وهو تاريخ نموها وارتقائها وتكوينها ، ورقى آدابها وعلومها . وأحسن ما يقال فى هذا الصدد ما كتبه المؤرخ الجليل نابغـة النوابغ فى

هذا المضمار ، وهو هنرى توماس باكل (Henry Thomas Buckle) فى كتابه المشهور فى عالم الأدب والتاريخ والسياسة ، واسمه (تاريخ المدنية) [1] ففى هذه المقدمة ذكر هذا المؤلف العظيم أن المصادر التاريخية لأخبار الأمم من حربية وسياسية واجتماعية ، كثيرة متعددة واسعة ، وفيها ماهو مرتب ومنظم ، ولكن النظر اليها من وجهة رقى الانسان ، وارتقاء الجنس البشرى ، ونهضة الشعوب واعتلائها ، وتدهور الأمم وسقوطهـا ، لم يوفه المؤرخون حقه .

ففن التاريخ اذن ليس مجرد أخبار وقصص ومستندات وروايات ، بل هو بحث فنى منطقى يجب ان يكون المتعرض للتأليف فيه واسع المادة وكبير الاطلاع ، لا على كتب التاريخ ومصادر الأخبار المتنوعة فحسب ، بل لا بد له من معرفة العلوم الأدبية والفلسفية والاجتماعية والطبيعية ، لتصوير حال الأمم التى يكتب عنها ، وعلاقتها بالظروف والأخلاق والآداب ، بل والمحيطات الطبيعية بها من جو حار أو بارد أو معتدل ، ومن انهار ووديان وجبال وهضاب ، فان لكل هذه الأمور الطبيعية تأثير عظيم على أعمال الأمم وأفكارها ومعتقداتها .

واعلم يابنى أن هناك فنوناً تاريخية لعدة فروع من المعارف الانسانية فللآداب القوميـة تاريخ ، وللأديان تاريخ ، وللعلوم الطبيعيـة تاريخ ، وللاكتشافات والمخترعات تاريخ ، وللتشريع والقوانين الوضعية تاريخ ، وللفلسفة تاريخ ، وهلم جرا . وفى هذه المباحث العويصـة كتب ممتعة

(1) History of Civilisation

باللغات الأوروبية ، وانى واثق انه متى ارتقت مداركك ، وشغفت نفسك بحب التثقيف والتهذيب ، فانك ستقبل على دراسة هذه المباحث العويصة اللذيذة ، وسأكتب لك فى رسالة اخرى عن ضرورة الانكباب على العلم والاطلاع بعد خروجك من المدرسة .

وكنت أحب أن اذكر لك شيئاً عن الكتب التاريخية التى أرجو أن لا يفوتك الاطلاع عليها ، مثل ما كتبه ابن خلدون وابن مسكويه ، وجبون ، وماكولى ، ولكنى رأيت أن أترك هذا لذوقك وتقديرك وربما لاحت لى فرصة اخرى فاكتب لك عن الكتب التاريخية الجليلة الشأن ، وقد يكون هذا فى الوقت الذى أتأكد فيه من ميلك الى هذا الفن الجليل .

واسأل الله أن يمتعك بالصحة والعافية ، ويمتعنى برؤيتك رجلا كاملا فاضلا ، يفخر بك أبوك ، كما يفخر بك وطنك . وسأكتب لك قريباً .

الرسالة الرابعة عشرة

العلوم الطبيعية

ولدى العزيز

لم اكتب لك شيئاً عن أهم العلوم وأنفعها فى الحياة ، وأعنى بها العلوم الطبيعية التى تطلق عليها كلمة (Science) باللغات الاجنبية . هذه هى العلوم التى يدور عليها اليوم محور العالم أجمع ، وهى العلوم التى حلت فى المنزلة الاولى ، وأصبح كل ما سواها من المعارف فى الدرجة الثانية بلا نزاع . والدليل على ذلك أن المعارف والعلوم الأدبية كادت أن تقف ـ ان لم تكن قد وقفت فعلا ـ فى حين أن هذه العلوم الطبيعية آخذة فى التقدم والارتقاء ، ولا تزال سائرة فى طريق النمو . وليس من المعقول أنها ستقف عند حد ، لأن الطبيعة لا حد لها ، ولا نهاية لأسرارها . فلذلك الفت نظرك بنوع خاص الى الاهتمام بالعلوم الطبيعية وكل ما يتفرع منها ، وما ينتسب اليها .

أما العلوم الطبيعية التى أذكر أننا درسناها فى المدارس المصرية فهى علم الطبيعة « Physics » وعلم الكيميا « Chemistry » وعلم النباتات « Botany » وشىء من علم الصحة « Hygiene » . ولكن العلوم الطبيعية ليست قاصرة على هذه ، بل هى كل المعارف التى ترتبط بالطبيعة وبنظام الكون ، وكل ما ينطوى تحت ذلك ، مثل علم الاحياء « Biology » وعلم النفس « Psychology » والعلوم الطبيعية على اختلاف فروعها ومسمياتها

وعلم الفلك « Astronomy » وعلم طبقات الارض « Geology » وعلم الحيوان « Zoology » وعشرات من العلوم الحديثة التى تختص بالفنون والصناعات المختلفة والأعمال المتعددة .

فنحن الآن يا بنى نعيش فى عالم كله مبنى على هذه العلوم الطبيعية فأينما كنا، وأينما وجدنا، وكيفما كان عملنا فى الحياة، لا بد لنا من الحاجة الى معرفة هذه العلوم، أو على الأقل، الوقوف على أهم النقط الأساسية فيها . فالجالس فى قعر داره، والراكب فى القطار، والطائر فى مطار، والفلاح فى حقله، والراهب فى صومعته، ملتصق بالطبيعة وبالعلوم الطبيعية، فى مأكله ومشربه وغرفة نومه، وفى حله وترحاله، وفى كل أمره وحاله .

ومن هذا تعرف ضرورة العناية بدراسة العلوم الطبيعية

سبق لى أن رددت لك كلمة مشهورة وهى « ان الكثير مما نتعلمه فى المدارس لا يفيدنا فى حياتنا » فذلك الكثير الذى قلما يفيدنا فى حياتنا الحقيقية العملية، المرتبطة بصحتنا وراحة أجسامنا وعقولنا، ونجاحنا فى الحياة، هو ما ليس من تلك العلوم الطبيعية التى عليها مدار الكون .

ان الانسان يا بنى ميال بفطرته الطبيعية ومنصرف — على ما اعتقد — بتأثير الوراثة عن آبائه الأولين، الى حب الزينة والتجمل والبهرجة فلذلك تراه ينسى قيمة الشىء النافع نفعاً صحيحاً، ويهتم بالزخرف اهتماماً عظيماً، فكما يوجه الزنجى — (كما يبرهن بذلك الفيلسوف هربرت سبنسر) — المتوحش عنايته الى الزينة وصبغ جسمه بالألوان، ولبس القلائد من الخرز والسبح ووضع ريش الطيور على رأسه، ويهمل تغطية جسمه لاتقاء

حر الصيف، أو قر الشتاء، كذلك نحن رغم مدنيتنا ورقينا وتهذيبنا، ورغم قرع ناقوس الحقيقة فى آذاننا، نقدر الأقمشة مثلا، لا بمقدار صفتها الواقية لنا أو النافعة لأجسامنا، بل بدرجة حسن منظرها ودقة نسيجها وزاهى ألوانها . وهكذا نحن مع العلوم والمعارف، فترانا نقضى الجزء الأعظم من الحياة فى العناية بمعارف ومعلومات لا تفيدنا فى حياتنا ومستلزماتها، بمقدار ما ننفقه من العمر والمجهود العقلى فيها .

ولقد ذهب الفيلسوف سبنسر فى هذا الموضوع الى أن أكثر ما نتعلمه من علوم اللغات والأدب والتاريخ والرياضيات هو من قبيل الزينة والتجمل، فى حين أن حاجتنا الحقيقية، فى معترك الحياة، تحتم علينا أن نجعل التعليم الأساسى فى تربيتنا قائم على العلوم الطبيعية، ولهذا الحكيم العظيم آراء هى منتهى الحكمة وغاية الصواب، فى هذا الباب . وانى لذلك أحثك على قراءتها، وتمعن المراد منها فى كتابه المعنون (التربية)

اذا وعيت يا بنى كلمة هذا الفيلسوف التى يقول فيها « تجد أحدهم يخجل اذا أخطأ فى نطق لفظة من أسماء أساطير قدماء اليونان أو الرومان ثم هو لا يظهر شيئاً من الخجل أو الأسف، اذا صرح واعترف بأنه يجهل عمل الجهاز الهضمى مثلا، أو مقياس حركة النبض، أو كيفية انتفاخ الرئتين فما أفظع تقديم الزخرف فى تربيتنا على المنفعة الحقيقية »

ومن قوله فى فضل العلوم الطبيعية على سواها « اطرحت المدارس أغلب العلوم التى هى ألصق المعارف بأعمال الحياة . وليس لتعليم المدارس أدنى فضل فى تلك العلوم التى أمكننا بواسطتها تذليل الطبيعة واستخدامها

حتى أصبح العامل الحقير يتمتع بما لم تنله أعاظم الملوك فى الأزمان الأولى»
(كالنور الكهربائى والسكة الحديدية والترام والسيارات والاحتياطات الصحية مثلا)

وسترى فى كتاب هذا العالم الكبير أنه جعل العلوم الطبيعية أساس كل تربية وتعليم، وأقام الحجة الناصعة، على ان المهندس والمصور والشاعر والكاتب والمشرع يكون اكثر دراية بفنه، وأقرب للتفوق فيه، اذا هو درس العلوم الطبيعية، ووقف وقوفاً تاماً على جواهر هاتيك العلوم المختلفة، مما يرتبط بفنه، ومما لا يرتبط به

وانى يا بنى أريد ان ابين لك أهمية العلوم الطبيعية لكى تنصرف اليها بكل ما اوتيت من ذكاء ونشاط. وانى أتشدد فى هذه النقطة لأنى أعلم اننا فى المدارس لم نكن نعير العلوم الطبيعية مثل الاهتمام الذى كنا نوجهه الى دراسة الآداب، وما فيها من لذة عقلية، ومباحثات ومجادلات أدبية وفكاهية.

فلكى أبين لك أهمية العلوم الطبيعية أرجع الى رأى سبنسر فى بيان درجات العلوم المختلفة من وجهة فائدتها للانسان فى حياته، فقد قال ذلك الفيلسوف المفكر العظيم، ان مساعى الانسان نحو ادراك العلوم يجب أن تسلك الترتيب الطبعى لمنفعة الانسان، على النمط الآتى:

اولا — العلوم التى تساعد الانسان فى المحافظة على حياته ووقايتها من الأمراض

ثانياً — العلوم التي تساعد على صيانة النفس بواسطة احراز المعاش

ثالثاً — العلوم التى تعين على تربية الاطفال تربية صحيحة نافعة لأبدانهم ونموهم

رابعاً — العلوم التى تؤهل المرء لأن يكون عضواً عاملا فى الهيئة الاجتماعية

خامساً — العلوم التى تزيد فى رفاهية الانسان

فأنت ترى يابنى أن هذا البيان الصادق للعلوم والمعارف، وهو قول حكيم مخلص فى حبه خدمة الجنس البشرى، قد جعل للعلوم الطبيعية المنزلة الأولى بلا نزاع. فالمحافظة على الحياة، وحفظ الصحة، ووقاية الانسان من الأمراض القاتلة، والأوبئة الفاتكة، وتربية الاولاد، ورفاهية بنى الانسان، تحتاج، فى مقدمة كل شىء، الى معرفة هاتيك العلوم الطبيعية، كالطب والجراحة وعلم الادوية والكيمياء والطبيعة وعلوم الكهرباء والهواء والماء، وما فى جوف الأرض من معادن وعناصر. ولا سعادة للانسان، فى هذا الزمان، بل ولا تحسن المعيشة فوق هذه الكرة الارضية، الا بالوقوف على هاتيك العلوم الطبيعية

نحن يا بنى نعيش فى حياة مرتبطة بالطبيعة وقائمة على أساس مبدأ تنازع البقاء، وبقاء الاصلح. الاصلح، لا فى الجسم فقط، بل الاصلح فى الجسم والعقل، واذا لم يكن من حظنا الحصول على تلك المعارف التى هى سلاح الافراد والجماعات فى هذا الجهاد الدنيوى، فلا أمل لنا فى الفوز بحال من الأحوال.

ثم انك تفهم بالطبع ان توجيه عنايتك للعلوم الطبيعية فى أثناء الدراسة

التجهيزية (أى التى تتجهز بها لاختيار فن من الفنون) يجب أن يكون ملاحظاً فيه ميلك الى الفن الذى تريد أن تتخذه حرفة لحياتك العملية، فاذا كانت وجهتك الاشتغال بالأدبيات، كأن تكون صحفياً او محرراً رسمياً، أو بالقانون فى المحاماة أو القضاء، او بأية حرفة لها اتصال واهتمام باللغة والأدب، فلا يتحتم عليك ان تجعل للعلوم الطبيعية المنزلة الأولى، اللهم الا بقدر مايلزم منها فى المعلومات، التى لاغنى عنها لانسان متعلم يفهم المعيشة ويريد أن يحيا حياة طيبة، سواء من أصول الطبيعة وعلوم الصحة والمعلومات الطبية الضرورية، وبعض المعارف الطبيعية عن النبات والحيوان والأقليم والجو، والماء والهواء، وما أشبه ذلك

واما اذا كانت وجهتك الاشتغال بالطب — وذلك ما سا كتب لك عنه عندما يحين الوقت للنظر فى أمر مستقبلك واختيار حرفتك — فيجب عليك ان توجه كل مجهودك، وميلك العقلى، وحبك العلمى، لجميع هاتيك العلوم الطبيعية، فيكون اقبالك على الكيمياء والطبيعة وتجاربهما فى المعمل المدرسى عظيما، ومصحوباً بالشغف والرغبة الصحيحة

ولتكن عنايتك بدراسة العلوم الطبيعية مقرونة بحب الاستطلاع ورغبة الوقوف الصحيح على أسرار الطبيعة وجلالها، وتقديس خالقها وموجدها: وليس مما يحتاج إلى دليل، ان العلوم الطبيعية ليست كالعلوم اللغوية والأدبية والتاريخية التى تقبل الجدل والمناقشة، ويمكن ان تكون سليمة وصحيحة على شكلين وفى روايتين مثلا، لأن العلوم الطبيعية تقوم على مبادىء ثابتة، وتجارب صحيحة، وأسس وطيدة ليس فيها للخيال ولا

للنظريات أثر، اللهم إلا بقدر ما يفرض من الفروض توصلا الى نتيجة تقوم عليها البراهين المحسوسة. وللطبيعة أسرار لا تفنى فهى تكشف كل يوم القناع عن شىء من تلك الأسرار. والذين يرفعون ذلك القناع ويخدمون الجنس البشرى. ويخففون مصاعب الانسان ومتاعبه فى هذه الحياة، هم اولئك العلماء الأعلام المشتغلون بالعلوم الطبيعية، والاكتشافات العلمية.

ولقد تقدمت العلوم الطبيعية فى اوروبا منذ بدء النهضة العلمية الحديثة (Renaissance) لاسيما بعد منتصف القرن السابع عشر الميلادى تقدماً مضطرداً رغم الاضطهادات الشديدة التى كان يلاقيها اولئك الذين كشفت الطبيعة عن بصائرهم فأهدتهم الى نور الحقيقة فساروا فى طريقهم لا تصدهم عنه محاكم التفتيش ولا حرمان البابوات لهم ولا ما كانوا يلاقونه من عذاب وآلام، وجاء «باكون» بطرقه الاختبارية فى الفلسفة و «نيوتن» الذى فتح الله بصيرته لقاعدة الجاذبية، و «ديكرت» الذى شاد للعلم أسساً جديدة و «لبنز» العالم الفيلسوف، و «لوك وهيوم» اللذان أشرت اليهما فى رسالتى لك عن آداب اللغة الانجليزية، و «سبنسر» البحاثة الاجتماعى واضع أساس فلسفة النشوء و «دروين» صاحب كتاب (أصل الأنواع)، ثم اكتشف البخار والكهرباء، وثبت الصحيح من علمى الطبيعة والكيمياء. وماذا أقول لك عن القواعد العلمية الصحيحة التى وضعها «كنت» و «لابلاس» و «لافزيه» و «ارنست هيكل» و «اغوسط كنت» اولئك هم هداة الجنس البشرى وقادته الى سبيل الرفاهية والسعادة، والصعود إلى معارج الملكوت الأعلى، فمتى عرفت

ذلك أدركت ما للعلوم الطبيعية من القيمة والفضل والجلال ، فجعلت لها المنزلة الأولى فى تربيتك الصحيحة التى لا يتحقق لك فوز بدونها

ولطالما خلط قوم فقالوا إن الانكباب على دراسة العلوم الطبيعية والتعمق فيها يبعد الانسان عن العقيدة الدينية . وهذا نهاية الخطأ والخطل ، فان الانسان كلما ازداد علماً بأسرار الطبيعة، كلما ازداد يقينه باجلال ذلك الموجد العظيم سبحانه جل شأنه . وهذا داروين واضع كتاب (أصل الانواع)[1] يقول عن نفسه « يستحيل على العقل الرشيد أن تمر به خلجة من الشك فى أن هذا العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغة ، وتلك الانفس الناطقة المفكرة، قد صدر عن مصادفة عمياء . لأن العماء لا يخلق نظاماً ، ولا يبدع حكمة ، ذلك اكبر برهان يقوم عندى على وجود الله »

وقد كتب سبنسر فصلا ممتعاً فى علاقة العلوم الطبيعية بالاعتقاد الدينى ، فى كتابه « التربية » الذى سبقت الاشارة اليه، فالفتك اليه ، وأرجو أن تقرأه بدقة وامعان

حقيقة يابنى ان التقاليد الدينية، ورجال الدين فى عصور مختلفة، وقفت فى سبيل تقدم العلوم الطبيعية، وحاربت انتشار هاتيك العلوم باسم الدين، ولكن ذلك لم يكن منشأه الدين الصحيح ، بل ما دخل عليه من خرافات وآراء ، وما دعت اليه صوالح اولئك الذين كانوا يظنون ان سلطتهم الروحية

(١) كتاب Origin of the Species وضعه شارل روبرت داروين وقد نقل جزءاً كبيراً منه الى اللغة العربية الفاضل المجتهد «اسماعيل مظهر» فله الشكر العظيم لما قام به من الخدمة الجليلة

معرضة للزوال بانتشار العلوم الطبيعية وتقدمها . وأحسن ما وضع فى باب مقاومة رجال الدين لهذا الصنف من المعارف الطبيعية ، كتاب ألفه المستر (جون ويليم درابر) الأمريكى تحت عنوان « تاريخ النزاع بين الدين والعلوم الطبيعية »[1]

وقد أثبت المؤلف فى فصوله الممتعة، ما كان للدين الاسلامى وحريته، من الاثر الصالح فى تنوير الأذهان ، وإزالة غشاوة الجهل عن العيون. على ان هذا لا ينفى ما حدث فى بعض عصور المدنية الاسلامية ، من وقوف بعض رجال الدين عقبة فى سبيل انتشار العلوم الطبيعية ، كما تثبت ذلك الاضطهادات التى لقيها فلاسفة الاسلام ، وعلماؤه الأعلام ، وما تعرضت له كتبهم من الاتلاف والاحراق

وانى لأرجو أن تبذل منتهى الهمة والعناية فى دراسة العلوم الطبيعية لأنى أميل كثيراً الى اتخاذك صناعة الطب حرفة لك فى مستقبل أيامك ، وسأكتب لك فى هذا الموضوع كلمة فى الرسالة المقبلة لأنى اريد ان أبحث معك ، فى موضوع اختيار مهنتك .

وأسأل الله تعالى ان يكلأك بعين رعايته، وان يوفقك لاختيار أشرف الصناعات وأنفعها لك فى حياتك المقبلة . ولك منى التحية والسلام .

(1) History of the Conflict between Religion and Science.

الرسالة الخامسة عشرة

إختيار المهنة

ولدى العزيز

أظن أن الوقت قد حان للفكر والبحث فيما تريد أن توجه اليه غايتك فى حياتك المستقبلة ، وأعنى بهذا اختيار المهنة ، أو العمل الذى تريد أن تتخذه وسيلة لكسب معاشك ، وواسطة لادراك مطامعك وآمالك . وهو مايصح أن تعبر عنه بالانجليزية The choice of your future career

يقف الانسان يابنى فى أوقات كثيرة من حياته ، فى مواقف دقيقة ، وساعات حرجة ، موقف المتردد ، بحيث يتوقف على اختياره وقراره ، فى تلك اللحظة الخطيرة الشأن ، إما فوز ونجاح ، وإما فشل وخسران ، وبعبارة اخرى ، إما حياة وإما موت ! !

تلك هى الساعات التى يختار فيها الانسان العمل الذى يريد أن يتخذه صناعة فى حياته المقبلة ، بل تلك هى الساعات التى يقف فيها الانسان فى مفترق الطرق ، فاما تهديه فطرته ، وترشده بصيرته ، أو تدفعه همته ، الى الطريق التى يجد فيها الوسائل لتحقيق مطامحه وآماله . واما يخطىء النظر ، ويضل الطريق ، ويسلك سبلا ملتوية ، فيعاكسه الدهر ، لسوء اختياره ، فيرى نفسه غير موفق لتحقيق ما كان يؤمله فى حياته ، بل ماهو جدير

به . فعلى اختيارك ، يابنى ، السبيل الذى تسلكه فى حياتك المقبلة ، وعلى اختيارك نوع العمل أو المهنة ، يترتب ما كتب لك فى لوحة القضاء ، من فوز ونجاح ورقى وهناء ، أو من تسكع أو فشل ، أو هم أو عناء .

فقف يوم تصل الى ساعة الاختيار ، موقف المفكر المتدبر ، ولا تعتمد على رأيك وميلك وهواك ، بل الجأ الى من هم أكبر منك سناً ، وأكثر تجربة فى الحياة ، وخذ برأيهم ، واعتمد على مشورتهم ، فلن تجد فى هذا الموقف من يخفى عنك الحقيقة .

قلت لك لا تعتمد على رأيك وميلك وهواك ، لأنى تعبت فى حياتى ، من جراء الاعتماد على هذا الميل والهوى ، ولقيت مالقيت ، من متاعب ومصاعب وأمور ، أنت أولى الناس بمعرفتها . ولو انى أصخت نصحاً لمن نصحنى باختيار مهنة الطب لكنت ، على ما أظن ، قد وفقت ، الى تحقيق ماطمحت اليه وما أردت . ولكننى أحببت الأدب ، وشغفت بالصحافة ، فاندفعت فى طريق غير مأمون العواقب ، بل غير مجد ولا مخصب ، رغم مافيه من ظهور وشهرة وخدمة عامة ، قد يحقق الكثير منها فى أية حرفة من الحرف الشريفة العظيمة الفائدة للأمة ، كالطب والهندسة والمحاماة ، بل والقيام بوظيفة فى حكومة البلاد

وما هو واجبى ؟ بل ماهى مهمتى ؟ بل ماهو الغرض من رسائلى المتكررة المتوالية ، اذا أنا لم أصارحك القول فى هذا الموقف العصيب ، وأشير لك بأصبعى الى الطريق المعبد ، والسبيل الممهد ، وأحذرك من الولوج فى المسالك المملوءة بالأشواك والأدغال ، والمعرضة للاخطار والمفاجآت ،

كيما يسلم جسمك وعقلك، وتأمن على صرح حياتك من التداعى والانهيار، بعد أن تكون قد أقمت بناءه بجدك وكدك أعواما طوالا .

الحياة يا بنىّ لا تعاد مرة أخرى ! ! ومن ذا الذى ضل السبيل ولم يتمن أن يبدأ حياته من جديد ؟؟ كثيرون يتمنون ذلك كما يتمنى الهرم أن يعود شابا ، من ذا الذى شعر بالخيبة أو أحس بأنه قد فاته فى أيام شبابه وعنفوان صباه ، ما كان يستطيعه من وراء مجهود كان ممكناً فى ذلك الزمن فلم يعد مستطاعاً بعد ذلك ؟؟ أقول من ذا الذى شعر بشىء من هذا ولم يردد الكلمة الفرنسية المشهورة

Ah. si jeunesse savait,
et si vieillesse pouvait,

ومعناها بالعربية

آه لو عرف الشباب ،

وآه لو قدر المشيب

فاحذر أن تقع فى يوم من الأيام فى مثل هذه الندامة ، وذلك بأن تحسن التفكير فى أيام شبابك ، وتحسن اختيار مهنتك ، وتبذل أفضل مجهود للوصول الى بغيتك ، فتأمن مغبة الزلل وألم الندم .

ولننظر ، أنا وأنت ، الى الحقائق ، ولا نضرب فى بيداء الأوهام والخيالات ، ولنعالج أمر اختيار مهنتك ، من وجوه النظر المختلفة ، لنصل الى إقناعك بما يجب أن تضعه نصب عينيك ، وهدف سهامك ، فلا تحيد منه ، ولا تنصرف عنه

إنى أعلم انك فى اختيارك لمهنتك ستكون مسوقا بدافع ميلك العقلى ، أو لتفوقك فى فن من الفنون . ولكن هذا الميل أو التفوق الوقتى ، لا يجب أن يقف حائلا دون الاصغاء الى رأى أولى الخبرة فى الحياة . وأظنك تفهم الغرض من هذه الاشارة . اذا قلت لك ان الميل الغريزى لفرع من فروع العلوم لا يمنع الاشتغال بفرع آخر كحرفة فى الحياة ، بحيث يكون هذا الاشتغال الجدى للمصلحة المادية وكسب المال — الذى هو أساس كل سعادة وهناء فى هذه الدنيا بالرغم عن كل ما يكتب ويقال — ويكون بعد ذلك الميل الغريزى للفروع الأخرى ، من قبيل اللذة العقلية ، وقضاء أوقات الفراغ ، فى أعمال أدبية أو علمية . ولكم عرفت من الاطباء من كان أديباً كاتبا ، وشاعرا مفلقا مبرزا ، ولكن أدبه وشعره ، ما كانا ليجمعا له ما جمع من الثروة ، وما خلف من الخيرات لأولاده من بعده . وزد على ما تقدم إن اتخاذ حرفة من الحرف كالطب والهندسه أو المحاماة مثلا ، لا يمنع الانسان من الاشتغال بالحرفة التى يميل اليها بفطرته ، وإن لم يتخذ دراستها وسيلة للمعاش ، فكثيراً ما سمعنا ورأينا أطباء فى صفوف الصحافيين والسياسيين ورؤساء الحكومات وفى مجالس النواب وهلم جرا .

تعلم صديقى « الدكتور ادوارد براون » المستشرق الشهير صناعة الطب ، وحاز فيها درجة عالية من جامعة كمبردج ، ولكنه لم يتخذها حرفة له ، بل شغف باللغات الشرقية وسافر الى بلاد فارس ، فاذا قرأت كتابه الجليل المعنون « عام بين الأعجام » (وألح عليك بضرورة الاطلاع على هذا الكتاب) ترى كيف ان صناعة الطب أفادته فى رحلاته ، وأنقذته فى بعض

الأحيان من الأخطار ، وسهلت له وسائل ادراك المعارف التى كانت نفسه ظامئة اليها

وأول مايجب أن تضعه نصب عينيك فى اختيار حرفتك ، هو أن تكون بواسطتها قادراً على كسب المال اللازم لنفسك ولأسرتك فى المستقبل ، ولبناء صرح المجد الذى تتطلع اليه ، دون أن تكون فى ذلك محتاجا الى معونة من أحد ، أو مضطراً الى مجاراة أو خدمة أغراض قوم ، مهما ارتقت منزلتهم أو علت كلمتهم . وبعبارة أكثر إيضاحا أقول : إننى أحب لك أن تأخذ فى حياتك بعمل تكون فيه حراً مطلقا ، غير مرتبط بالتقلبات السياسية أو الحكومية ، بحيث تستطيع أن تعيش فى أية مدينة ، أو تقيم فى أى بلد ، تعرف كيف تكسب فيه المال ، وتخدم قومك ، أو الجنس البشرى على وجه الاطلاق . وليس فى نظرى أقرب لتحقيق هذه الأمنية من صناعة الطب

ولقد ذكرت لك انى أحب أن أواجه الحقائق معك ، ولا نضرب فى بيداء الأوهام والخيال . فلو كنت ذا ثروة كبيرة مثلا ، وكان فى الامكان أن ترث من المال والعقار مايضمن لك مقدار ماتجب انفاقه على نفسك ، لصح لك أن تختار ماتريده من المهنة ، وما تنصرف اليه جوارحك من الأعمال الفنية أو الأدبية . أما والحال غير ذلك ، واعتمادك فى المستقبل لايكون إلا على نفسك ، وعلى ماتكسبه بعملك وجدك واجتهادك ، فأنت مسؤول أمام نفسك ، وأمام اهلك ، بل وأمام المستقبل المجهول من ولدك ، أن تختار المهنة التى هى أضمن من سواها

ولقد يرى بعضهم إن دراسة الحقوق تمكن الانسان من اتخاذ حرفة المحاماة ، وهى حرفة شريفة ، كما إنها قد تفتح الباب للطموح الى مراكز الحكم والنفوذ والصعود الى أعلى مراتب المجد . وهذا صحيح يابنى ، ولكنى ممن يعتقدون أن صناعة الطب أنفع لصاحبها من كل الوجوه ، فهى أولا وسيلة من أحسن الوسائل للمحافظة على صحة الانسان وآله ، وتلك أس السعادة والهناء ، وأول مايكون الطبيب طبيباً لنفسه وآله وولده ، وثانياً إن صناعة الطب لاتتقيد ببلد ولا بلغة ، فالطبيب المصرى طبيب فى أوربا ، وطبيب فى أمريكا ، وطبيب فى مجاهل أفريقية ، والمحاماة ليست كذلك . وأما من حيث التطلع الى مراكز الحكم والنفوذ فليس ذلك بممنوع عن الطبيب اذا وجدت فى نفسه هذه الرغبة وخصوصاً اذا ارتقت النظامات النيابية فى هذه الديار . ومن ذا الذى يفضل المنازعات السياسية والتقلبات الحكومية على حياة العلم وتخفيف مصائب الانسانية ؟ ؟

وهناك مهن كثيرة فى مصر كمهنة المهندس والزراعى الفنى والأعمال التجارية ، وليست فى نظرى مما يحسن اختياره بالنسبة لحالك وظرفك الخاص . وقلما يستغنى المهندس عن خدمة الحكومة ، وإلا اضطر الى الاشتغال بأعمال شاقة تقضى عليه بالتنقل فى القرى ، أو مباشرة تشييد مبان أو ما أشبه ذلك . مع إن العلوم التى يتلقاها المهندس ، والمواد التى يجب عليه إتقانها قبل الحصول على الشهادة النهائية ، من أصعب المعارف ، وربما كانت أصعب فى التحصيل من العلوم الطبية ، ولكن فوز الطبيب فى الحياة أكثر ضمانة من مستقبل المهندس حتى ولو ارتقى درجات عالية فى وظائف الحكومة

أما التجارة والزراعة وما أشبه ذلك فليست لك ، وانما هى لقوم ينشؤون فيها أو يكون لديهم من الأطيان الواسعة الخصبة مايمكن من الحصول على الايراد الكافى

والخلاصة بابنى إننى أحب لك أن تفكر طويلا قبل اختيار الطريق الذى تسير فيه، وأنصحك أن تعتمد على رأيى الذى أبديته لك فى هذه الرسالة . وسأكتب لك بعض آراء عن الحياة العملية بعد خروجك من المدرسة ، مؤملا أن تجد فى هذه الرسائل ماينير بصيرتك ، ويهديك الى شاطىء السلامة ونعيم العيش . واسأل الله أن يوفقك الى اختيار أسلم الطرق ، وأن يجعلك سعيد الحظ . موفور الكرامة . وسلام الله عليك وأزكى تحياته .

الرسالة السادسة عشرة

بعد المدرسة

ولدى العزيز

أريد الآن بعد أن شرحت لك رأيى فى طرق التعليم والدراسة فى بعض العلوم ، أن اكتب لك شيئاً فى تهذيب الاخلاق ، والآداب العامة وفى حسن السيرة ، الى غير ذلك مما يخطر ببالى من آن لآخر ، وغرضى من ذلك هو أن تقرن العلم بالأدب ، وتثقيف الذهن ، بحسن السيرة ، وحسن المظهر ، وكمال الظرف ، ورقة الحاشية ، وجمال الخلق . واريد بهذا أيضاً أن أرشدك الى سواء السبيل ، وان انبهك الى المزالق الذى تجب الحيطة من الوقوع فيها .

وبعبارة أخرى ، اريد أن اقدم لك خبرتى وتجاربى فى الحياة ، كيلا تقع فى مثل ماوقعنا فيه من اغلاط ، ولكى لا تدفع فى حياتك المقبلة ما دفعناه فيها من ثمن غال ، وما تجرعناه من مرارة الحياة ، وذقناه من آلامها

أريد أن اضع نفسى منك ، موضع المرشد لك ، الحريص على سلامتك ، الشغوف براحتك . ولا تظن ، فيما أريد أن القيه عليك من النصح والارشاد ، انى سأملى عليك ارادتى كوالد ، أو مرب . كلا ، انى اريد فيما سأبعث به اليك فى رسائلى المقبلة ، أن اخاطبك كصاحب وصديق ، بل وصديق متساهل ، يفهم الطبيعة البشرية ، ولا يريد أن يكون متشدداً متعجرفا ،

أريد أن أهديك وأرشدك حتى فى لعبك ولهوك ، لأنى أعتقد ان طرق النصح والارشاد للناشئين يجب أن تتكيف بحالة الزمان، وظروف الانسان.

هـذا فضلا عن انى ممن يعتقدون أن الزمن الذى كان يصح فيـه النصح على طريقة التخويف من العقاب ، والوعد بالثواب ، وما فى الآخرة من جنة ونار ، ـ قد مضى وانقضى ،

ولذلك سترى ، أنى بدلا من أن أقول لك ان هذه أو تلك خطيئة لاترتكبها ، سأقول لك إنه لايليق بأدبك ، ولا يليق بشرفك ، ولا يليق بنشأتك ، ولا يليق بسمعتك ، ولا يليق باسم أهلك وقومك ، أن تقرب تلك الرذيلة مثلا ، بل سأجتهد فى اقناعك بأن تمسكك بالفضائل ، ومحافظتك على حسن السمعة ، وما يجرى مجرى ذلك من كمال الأخلاق ، والبعد عن الرذائل ، لهو من ضروريات نجاحك فى الحياة ، وان من مصلحتك الذاتية أن تكون فى جانب الفضيلة ، وأن تسلك مسلك الأدب والكمال .

رغبتى : هى أن أوقظ فيك عاطفة الميل للفضائل ومكارم الاخلاق ، وأحذرك من ارتكاب الهفوات والأغـلاط ، وأريك ما ينتظرك فى مستقبلك ، وبعبارة أخرى ، أريد أن أرفع لك المصباح بيدى أنير لك الطريق ، حتى يشتد ساعدك ، وتأمن على قدمك من العثار . ولكى أؤدى هذه المهمة التى أعتقد انها من واجبى نحوك ، كما انها من أقدس الواجبات على كل والد ، حتى لايصدق عليهم قول المعرى «هذا جناه أبى» . . لكى أؤدى هذه المهمة ، أبدأ فى هذه الرسالة بأن أذكر لك ، إن الحياة المقبلة التى تنتظرك بعد إتمامك دروسك ، وخروجك من المدرسة ، ليست كما تصورها لكم

مخيلاتكم وأنتم فى زمن التعلم . فأنا أعرف وأعتقد ، انكم تتصورون أن زمن الدراسة هو زمن التعب والشقاء ، وان السعادة والهنـاء ، هى فيما وراء سور المدرسة ، وبعد نيل الشهادات .

هذه فكرة كلها خطأ وضلال ، واعتقاد صحتها يعود بالضرر الكبير على الشبان فى مقبل حياتهم . بل ويسيء اليهم فى زمن دراستهم . وعندى انه يجب أن يكتب فى هذا الموضوع مطولا ، مفصلا ، وأن يغرس فى أذهان الطلبة فكرة إن حياتهم المدرسية هى أسعد أيامهم ، وأهنى أوقاتهم ، وأن الذى ينتظرونه من الحيـاة السعيدة ، والراحة المستديمة ، بعد إتمام دروسهم ، ليس صحيحاً .

يجب أن يغرس هذا فى أذهان الطلبة ، لأن له فوائد كثيرة : منها انهم يقبلون على التعليم بلذة وسرور ، ويذهبون الى المدارس فى صبح كل يوم بوجوه مشرقة ، وثغور باسمة ، ويعودون اليها بعد كل عطلة واجازة بسرور وفرح وطرب ، فيزداد فيهم الميل الى التعلم ، ويزداد حبهم لرفقائهم ، وحبهم لأساتذتهم ، وحبهم لألعابهم الرياضية ، وحبهم للمدرسة ولكل شيء فيها .

ومن فوائد ذلك أيضاً إنه اذا اعتقد الطلبة ، أن ايامهم المدرسية هى أهنى أيامهم ، وان الجهاد والجلاد ، والتعب والنصب ، لاتبدأ إلا عند الدخول فى الحياة العملية ، فلا يقوى عندهم الميل الشديد الى التخلص من الدراسة ولا يبلعون دروسهم بلعاً بغير مضغ ، فلا تهضمها عقولهم ، ولا تسرى فى أرواحهم ، وزد على ذلك إنهم متى تأكدوا وأدركوا وأيقنوا إن الحياة

المقبلة عليهم ليست كما يصورونها فى مخيلاتهم ، جنة قطوفها دانيـة ، بل بالعكس هى حياة كد وجد ، فانهـم يفكرون فى اختيار العدة الى ذلك الجهـاد الطويل من علم وعمل وأخلاق ، كما يأخذ المسافر ، سفراً طويلا ، عدته لذلك السفر من زاد ومؤنة ولباس وسلاح .

ان تصويركم ، يابنى ، للحيـاة المقبلة تصويراً زاهياً لامعاً يسىء الى عقولكم كثيراً يوم تلجون ميدان الحياة ، وتصدمون بما تلاقونه فيها من مرارة وألم ، وهم وغم ، ولذلك فانى أنصحك أن لا تصور حياتك بعـد المدرسة بذلك اللون الوردىّ ، بل صوّرها كما أريد أن أفهمك إياها على حقيقتها ، واعلم انها حياة الجـد والعمل والـكفاح ، لـكيلا يصدم عقلك صدمة عنيفة ، لأن الانسان الذى يعرف انه داخل على ظلام يعد له عينيه ، ولا يؤخذ على غرة ، ولا تتولاه غشاوة . فيضل بعد هداه .

وما هى فائدة العلم والتهذيب ؟ بل ماهى فائدة هذه النصائح وأمثالها اذا كانت لاتؤدى الى إنارة الطريق لك فى حياتك المقبلة ؟ ولمـاذا ينفق الآباء أموالهم فى سبيل تربية أبنائهم ويجودون براحتهم وهنائهم ومطالبهم الخاصة ، إلا للحرص والشغف بمستقبل ابنائهم ؟ وأول مايجب على الآباء كما قلت ، هو أن ينبهوا أبناءهم الى ماينتظرهم فى المستقبل من المتاعب والمصاعب

انى لا أريد أن تخرج من هذه العبارات بأن الحياة التى أنت مقبل عليها سوداء مملوءة كلها بالهم والنكد والعناء . . . لا لا . انى بعيد عن هذه الفكرة كثيراً ، بل أنا ممن يعارضون فكرة التشاؤم ، ونظرية اليأس ، لأنها مضرة بالأخلاق ، ومؤدية الى نكد العيش الدائم ، والحياة يابنى فيها خيرها

وشرها ، لها ليلها ولكن لها ايضاً نهارها ، وان كان لها مساؤها القاتم ، فلها فجرها الباهر . ونعم لها شتاؤها ، ولكن لها أيضاً ربيعها وصيفها وخريفها.

إلا أن الواجب هو أن يعرف النـاشئون أن حيـاتهم المقبلة ليست كلهـا كما تصورها لهم مخيلاتهم فى المدرسـة وأن من الواجب عليهم أن يكونوا فى أدمغتهم فكرة ماتحتاجه الحياة المقبلة من الاستعداد البدنى والعقلى والأخلاقى لتلقى صدمات الحياة اذا صدمت ، ومواجهة العواصف اذا هبت ، وللفوز والوصول الى مراتب المجد والعلاء متى طُلبت وقصدت !

وهنا أحب يابنى أن ألفت نظرك ، « وأنا متشدد فى هذه النقطة اكثر من كل شىء سواها ، » الى أنه يجب أن تعتقد أن التعليم لاينتهى بانتهاء الدراسة فى المدرسة ونيل الشهـادات النهائية العـالية . انمـا التعليم فى المدرسة أساس للتربية العقلية ، وللتثقيف الصحيح الذى يطلق عليه باللغات الأوروبيـة كلمـة (Culture) ، ذلك التثقيف الذى لايتم لأنسان إلا فى تربيته ودراسته الخاصة . ولـكى تـكون رجلا راقى الفكر ، سـامى الرأى ، مثقف الذهن ، عالما فاضلا متينا ، بالمعنى الصحيح ، يجب أن تفهم أن التثقيف الحق يبتدىء بعـد إتمام الدروس المدرسـية التى تعتبر أساساً للتربية الحقيقية

وهل يمكن أن يخطر ببالك أن التعليم المدرسى الذى يستوى فيـه جميع طلبة العلم على اختلاف اسـتعدادهم العقلى والوراثى ، يكون كافياً للظهور فى الحياة ، والميزة على الأقران ؟ لو كان الأمر كذلك لـكان كل الحائزين لشهادات علمية متماثلة ، فى درجة واحدة من المنزلة العلمية ، والسمو

العقلى ، بل وفى صف واحد من صفوف الحياة ، وما خلق الناس ليكونوا انداداً وامثالا فى كل شىء :

التثقيف يا بنى يبتدىء بدراستك الخاصة وميلك للعلم الذى تنصرف اليه جوارحك ، أو بحثك المستفيض فى الفنون الذى ترتبط بحرفتك أو مهنتك أو وظيفتك فى الحياة . والعلم ليس جامداً منتهياً عند حد . كلا ان العلم فى كل نوع من أنواعه سائر الى الامام يوماً بعد يوم ، انلم نقل دقيقة بعد دقيقة . نعم وقفت الأصول والقواعد الثابتة فى العلوم ثبات جزع الشجرة وجذورها ، ولكن الأغصان والفروع تنمو فى كل لحظة. ولهذا وجب عليك أن تتبع هذا النمو فى الفنون التى تشتغل بها لمعاشك ومركزك ، وكذلك فى العلوم والمباحث التى تميل اليها لفائدتك ولذتك

لاتفوتك فى العلوم التى تختارها كما ذكرت لك ، لحرفتك ولذتك ، أن تتبع الحركة العلمية فيها بكل دقة واهتمام فتكون له صلة بالمكاتب والمطابع ، ويصل اليك من آن لآخر بانتظام جميع الفهارس للكتب الحديثة والمجلات العلمية والأدبية التى تصدر فى أوقات مختلفة ، وبعبارة اكثر اختصاراً أريد لك أن تشغف بالعلوم والمعارف لتكون مناراً يهتدى به حتى لايمتاز عنك أحد من أقرانك وانداداك بشىء من الاشياء .

ولقد ورد فى الحديث الشريف قول النبى الأعظم ، صلى الله عليه وسلم ، « لايزال الرجل عالماً ماطلب العلم ، فاذا ظن انه قد علم فقد جهل »

فتأمل يابنى رعاك الله فى قوله عليه السلام « من ظن أنه قدعلم فقد

جهل » ففيها كل الحكمة ، وهى نهاية النهايات وغاية الغايات . فأن خطر ببالك يوماً أنك قد علمت أو انتهيت من العلم ، فان هذا الخاطر وحده ، يكون العنوان الناطق بجهلك ، وانحطاط عقلك .

ومثل هذا قول رجل حكيم من العرب وهو ابى عمر ابن العلاء . قيل له « هل يحسن بالشيخ أن يتعلم ؟ » قال « إن كان يحسن به أن يعيش فانه يحسن به أن يتعلم »

ومعنى هذا أن التعليم مقرون بالحياة إلى آخر نفس فيها . فمتى عرفت هذا وتأكدت منه ، وتأصل فى نفسك ، أمكنك أن تفهم أن العلم والتربية والتثقيف ، انما تبدأ بعد اتمام العلوم المدرسية ، ومن هذا يمكنك ان تفهم وتقدر الحياة التى أنت مقبل عليها بعد المدرسة .

فلهذا أريد ، كما قلت لك فى مبدإ هذه الرسالة ، أن انبهك وارشدك فى مسالك تلك الحياة التى انت مقبل عليها واسير معك ، لا كالامر المتعنت ، بل أحب ان تتخذنى معك « كدليلك وفيلسوفك وصديقك » . واؤكد لك انك ستستطيع معى صبرا ، وانك تكسب من نصحى وإرشادى . والله المسؤول ان يجعلك ممن يستمعون النصح ويعملون به

الرسالة السابعة عشرة

السلوك

ولدى العزيز

ليست العلوم والمعارف ، على اختلاف انواعها ودرجاتها ، كيفما نبغت فيها ، وكيفما اخذت بأوفر قسط منها ، كفيلة وحدها بنجاحك وفوزك على الأقران ، وتقدمك إلى الصفوف الأولى بين بنى الانسان ، وما اريد لك إلا الفوز والنجاح والفلاح . إنى انفق عليك من مالى القليل الضئيل ، وابعث لك بهذه الرسائل بين فترة واخرى ، واشرف على تعليمك ، واسأل معلميك عنك ، وافكر فى مستقبلك على الدوام ، — كل هذا رغبة منى فى ان تفوق غيرك وتحصل على ما فاتنى إدراكه لظروف لا محل لذكرها لك ، وإن شئت ان اصرح لك بشىء منها ، فلا اقول لك اكثر من انه لم يكن من حظى أن أجد من يرشدنى فى مبدإ حياتى ، كما اخذت على نفسى إرشادك وهدايتك ، لكيلا تقع فى شىء من الغلط او الخطأ الذى وقعنا فيه ، بحسن نية وسلامة قصد ، فعاقنا عن إدراك ما نريده من الآمال لأنفسنا ، وما نعتقد انه حق لنا .

أدع هذا ففيه من الذكرى المؤلمة ما فيه ، وادخل معك فيما اشرت لك اليه فى اول هذه الرسالة ، وهو إن العلوم والمعارف ، وسعة الاطلاع والتهذيب

التام ليست وحدها كفيلة بنجاحك ، إذ يلزمك التحلى بأخلاق وصفات ومظاهر ، لا اتصال لها بالعلوم والمعارف ، ولا بالكتب والمباحث ، ولا بالبلاغة والفصاحة ، ولا بشىء مما اتعبت نفسك فيه من تحصيل تلك المعارف . واعنى بتلك الأخلاق والصفات ، مظهرك ولطف مقابلتك ، وحسن بزتك ، وجميل هندامك ، وظريف حديثك وكلامك ، وبعبارة اخرى هو كسب رضاء الناس عنك ، وميلهم اليك . وهو ما سماه اللورد تشسترفيلد ، فى كتبه لولده ، «صناعة الارضاء»[1] ، وشرحها لولده شرحا لطيفاً فى الكتاب الرابع عشر من كتبه فالفت نظرك إلى تلاوته بامعان فان فيه الكفاية . وليس ثمت ما يحملنى على ان اردد لك هنا أقوال وآراء ذلك الرجل الحكيم ، فان معرفتك باللغة الانجليزية تغنينى عن تعريب بعض عباراته التى افضل لك ان تتطلع عليها ، وتتفقه معانيها ، فى لغتها الأصلية . وإنما اريد ان انبهك إلى بعض الوسائل التى تلزمك فى مثل احوالك الخاصة فى بلادنا ، وما ارجوه لك من حسن الأحدوثة وكمال الصفات .

إننى اريد لك ان تسطع وتلمع فى الحياة . يشار اليك بالبنان ، وتحنى لك الرؤوس إكراماً واحتراماً ، ويملأ منظرك الصدور هيبة وجلالا ، ويبعث شخصك فى النفوس حباً وانعطافاً ، وتكون ، إذا دخلت فى مجلس من المجالس الحافلة ، كالنور الكهربائى إذا سطع على الشموع ، لا يطفئها ، ولكن يجعل نورها دون نوره بهاء وسناء

لهذا أحب لك ان لا تستخف بشىء مما يعده الناس من المظاهر

(1) The Art of Pleasing

الكمالية او الخارجية ، فلا يراك احد إلا متجملا بأحسن اللباس وأقربه للكمال والرقة والظرف المطلوب المرغوب فى زمانك ، ولا يخطرن ببالك ان هذا يقتضى المال والاسراف للحصول على الملابس الفخمة الغالية . كلا فان النظافة والبساطة، وسلامة الذوق وحسن الاختيار، تعوض على المتوسطين من الناس، ماينقصهم من الغنى والثروة ، بل كثيراً مارأينا متوسطى الناس أحسن بزة وألطف هنداماً، وأكمل انسجاما، من ذوى اليسار الذين يتكلفون ويسرفون فى ملابسهم ، بحيث يفقدون جمال الهندام ، وينقصون من كمال الانسجام .

ومع انى أريد لك أن تكون دائماً متحلياً بأحسن الملابس ، نظيفا ظريفاً ، فلا أحب لك أبداً أن تزيد فى هذا الى درجة أن توجه للقيافة كل اهتمامك، فتخرج من درجة الكمال والوقار، الى الهزؤ والسخرية، وتصبح متكلفاً متحذلقاً. ومن أول الصفات اللازمة لمن يعنى بأمر ملبسه وهندامه ، أن لا يتعدى تلك الدرجة ، الى المنزلة التى يمكن لخصمه (ولكل انسان حاسد وخصم) أن يرميه بأنه «متحفلط» «متغندر» ، جل همه أن يخرج من منزله كالفتاة المولعة بنفسها . والحد الفاصل بين الظرف الصحيح ، والتظرف الممقوت ، وبين الجميل الهندام ، والمتحذلق المهزار ، دقيق غير محسوس. فان لم تكن حريصاً ، كثير العناية باختيار مظهرك، لا افراط ولا تفريط ، فقد تنتقل فى شكلك من المحبوب المطلوب، الى المحتقر الممقوت!

يشترك مع حسن هندامك الظاهر حسن المقابلة، ولطف الاشارة ، وخفة الحركة ، وتناسب الصوت ، بحيث لا يكون مرتفعا ولا منخفضا ،

ولا خشناً ولا مرناً . ثم لا تقابل أحداً من الناس كبيراً كان أو صغيراً ، الا باشاً باسما ، متواضعاً متلطفا ، ولا تزد فى حديثك عن الحد المطلوب مع المناسبات التى تقتضيها الظروف. واذا رأيت فى أحد منهم مالا يرضيك من ظاهره أو حديثه ، فلا تشعره بعدم رضائك أو نفورك ، فان الناس يحقدون على من يظهر لهم ، تفوقه عليهم، أو احتقاره لمنزلتهم ولصفاتهم وأحوالهم . وماذا يدعوك لاجتلاب حقدهم عليك ، وأنت قادر على أن لا تدعهم يفهمون منك، ماتراهم فيه من عيب أو نقص ؟ والناس يابنى يحكمون اهواءهم، اكثر مما يحكمون عقولهم ، فاذا رأوا منك تجاوزاً عن هفواتهم ، وابتعاداً عن إظهار عيوبهم ، وتحاشياً عن كشف نقائصهم ، أحبوك وأثنوا عليك وابتعدوا عن أذاك ، وهو كل ماتطلبه منهم

ولقد أشرت إليك فى تعبير خاص ، إلى الابتعاد عن إثارة حقد الناس عليك ، أو حسدهم لك ، فنصحتك بأن تكون إذا دخلت فى مجلس من المجالس الحافلة ، كالنور الكهربائى ، اذا سطع على الشموس ، لا يطفئها ولكن يجعل نورها دون نوره بهاء وسناء

وهذه الاشاره تحتاج الى تفسير وايضاح ، كيما يمكن أن تنغرس فى ذهنك ، وتنجلى لها بصيرتك .

من الناس يا بنى ، من يتولاهم الغرور ، أو الثقة التامة بأنفسهم ، أو يتملكهم حب الظهور والتفوق على الأقران ، أو تأخذ بمجامع قلوبهم شهوة الفوز ، فينسون ان للناس نفوساً كنفوسهم ، وعواطف كعواطفهم، ومطامع وشهوات ، كمطامعهم وشهواتهم ، ولهذا يسيئون إلى أنفسهم من

حيث يريدون الاحسان اليها . ذلك لانهم يجتهدون فى كتم أنفاس غيرهم ، وتحقير مدارك سواهم ، والحط من كفاءة كل من يشهد مجلسهم ، أو يحاول الاشتراك فى مناقشة معهم . فيجلبون على أنفسهم عداوة اولئك الذين يميلون إلى الظهور والشهرة ، باظهار ما عندهم من علوم ومعارف واختبارات ، وما خصهم الله به من طلاقة لسان ، وفصاحة قول وتعبير ، وبدلا من ان يكسب الذكى الحصيف ، من ذكائه وتفوقه ، فى مثل هذه المجامع الحافلة بالناس ، أو يسمو على اولئك المتوسطين المولعين بالظهور ، فانه يخسر ميلهم اليه ، وربما حرضهم بذلك على معاكسته والسعى لاسقاطه من منزلته ، حيث كان فى إمكانه أن يسطع عليهم ، ويسمو بحديثه وعلمه وذكائه عنهم ، وفى الوقت نفسه يجتذب قلوبهم ، ويستدنى اليه ميولهم ، ولا يكون ذلك إلا بحسن التصرف فى معاملتهم ، وعدم التهجم على معارفهم ، ويكون ذلك بتركهم يظهرون ما يريدون أن يظهروه من مميزاتهم ، وهو فى خلال ذلك يشرق عليهم بنور ذكائه الممتاز ، ومعارفه الأسمى منزلة ، والأمتن صفة ، والأوسع مادة ، والأصح رواية ، والانضج ثمرة ، بحيث لا يشعرون بدبيب الحسد فى نفوسهم ، ويتم له ذلك بوسيلة لا تدب معها عقارب حقدهم ، على شخص ممتاز عنهم .

هذا هو الذى أردته لك باشارتى الى النور الكهربائى ، لا يطفىء الشموع ، ولكن يظهر سناؤه عليها

ومع كل هذا فانى أعترف انك لن تسلم من الحاسدين والمعادين ، والناقدين والحاقدين . ومن ذا الذى استطاع أن يسلم منهم ؟ وقد قيل

« ان رضاء الناس غاية لا تدرك » ولكن مالا يدرك كله لا يترك كله ، وفى حسن تصريفك للأمور ، وتناولك للعلاقات بينك وبين اقرانك وأندادك ، باللطف والظرف ، وكرم الأخلاق ، والتواضع الذى لا ينقص من قيمتك ، ولا يبخس من حقك ، ما يساعدك على الاكثار من المحبين والاصدقاء ، والمعجبين بك والمعترفين بفضلك ، وهذا يتبعه بمقتضى الحال الاقلال من الفريق الذى لم تتمكن من ضمه الى فئة انصارك واخوانك ، ولم تستطع بعد كل لطفك وأدبك وحسن معاملتك ، أن تجذبه للانطواء تحت لوائك . وتذكر قول الشاعر

وما بكثير ألف خل وصاحب وإن عدواً واحداً لكثير

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلك ممن يألفون ويؤلفون ، وأن يوفقك فى حياتك المقبلة ، الى كسب رضاء الناس عنك ، وثقتهم بك ، وميلهم اليك ، إنه سميع مجيب . وسلام الله عليك ورحمته وبركاته .

الرسالة الثامنة عشرة

ولدى العزيز

سترى يابنى فى حياتك المقبلة، أطال الله أيامك وجعلها سعيدة هنية، كثيرين من الرجال والسيدات الذين تقضى عليك ظروف الحياة بمعاشرتهم، والالتصاق بهم، لأسباب مختلفة، وترى من واجبك، ومقتضى مصلحتك، أن تحظى برضائهم وميلهم ومحبتهم دون سواهم. أولئك هم الذين يجب عليك أن تبذل منتهى العناية فى إرضائهم وكسب مودتهم، والظهور عندهم بمظهر الرجل الشريف الكامل، الذى لاغبار عليه من خلق أو سلوك، هذا فضلا عن الثقة بأدبك وعلمك وفضلك، والاعتماد على كفاءتك وتفوقك ونبوغك. أولئك هم الخاصة من الناس الذين يقضى عليك واجبك أن لا يظهر فيك نقص، أو تبدر منك بادرة ضعف، أو سوء تصرف، أمامهم أو نحوهم.

متى توجهت نيتك إلى اكتساب ثقة هذه الطبقة من الرجال والنساء، فأول مايجب عليك هو أن تحافظ اولا على ماشرحته لك من حسن المظهر الخارجى من نظافة وهندام، ولطف فى الحديث وبشاشة فى الوجه. وثانياً يجب أن تعلم أن قوة اقناعك، بفضلك ورجاحة عقلك لكسب ثقتهم، قائمة فى الحقيقة على قاعدة رقيك العلمى والفكرى والأدبى، فاذا ثبتت عندهم

ميزتك على سواك، فقد وصلت إلى قلوبهم، ونلت محبتهم، ووثقت من رعايتهم وتعضيدهم.

ولكن يجب عليك ان تعلم يابنى، أن لكل رجل، ولكل امرأة، مهما سما عقله، أو سمت مداركها، مواضع ضعف، كما أن لهم مواهب راقية، وأخلاق سامية، وميزات خاصة، فاذا أردت أن تحظى بثقتهم ومحبتهم، وإعجابهم ومودتهم، فاجعل همك موجهاً إلى الثناء على مواهبهم، والاعتراف بفضلهم وفضائلهم، وإظهار جهلك أمام علمهم، وحاجتك إلى الاغتراف من بحر فضلهم. وتحاش أن تلمس، بالانتقاد أو الملاحظة أو الاشارة، أى شىء من النقص الذى تعرفه فيهم. وكثيراً مايكون نقصاً بريئاً لا يضرك أن تملقه - بعض التملق - الذى لايظهر أثره، بحيث لا يبدو على وجهك أو حركتك، إنك لاتريد من تمليقك لضعف أحدهم، غير ما ينطق به لسانك، أو يعبر عنه وجدانك، لأنه إذا اشتم احدهم منك رائحة التهكم، فقد خسرت ثقته ومودته. وقد يكون الرجل مع ذلك الضعف فيه، عظيما فى كل صفاته الأخرى، فهو جدير بالاجلال والاكرام.

هذا الكاردينال ريشيلو، كما تعلم من درس التاريخ، كان اكبر سياسى فى زمانه بل كان من اعظم رجال العالم مقدرة وعلماً، وسياسة وكياسة، فلم يكن فى حاجة من هذا القبيل، إلى شم بخور الثناء من أفواه الملتفين حوله، المتطلبين معونته ونصره، ولكن كان فيه مع ذلك ضعف خاص، وهو اعتقاده فى نفسه، بأنه شاعر من الطبقة الأولى، فكان يحسد (كورنيل) صاحب رواية «السيد» المشهورة، حتى حرض على انتقاد

روايته هذه . فكان من الرجال الاذكياء المحيطين به من انتفعوا كثيراً من تمليق تلك العاطفة ، أو الضعف البسيط ، فى خلق ذلك الرجل العظيم ، وليس فى ذلك شىء من العيب والعار

وارضاء النساء ، مصريات كن أو أجنبيات ، وحسن عشرتهن من الصفات الضرورية للناشئين فى حياتهم المقبلة ، لأن سطوتهن ونفوذهن فى الدوائر العالية ، أمر لا يغفل عنه إلا قصير النظر ، ومحدود الآمال . وأول ما يجب على من يريد الحظوة عند النساء الفاضلات، أن لا يؤلمهن فى مواضع ضعفهن ، فهن فيه أدق احساساً، وأنعم ملمساً من الرجال، فمنهن من تحب ان تملق فى جمالها وهى ليست جميلة ، ولكنها تخال ان جمالها فى رشاقتها وحسن هندامها ولطف حديثها . وأخرى تود أن تملق فى ادبها وعلمها وميزتها على مثيلاتها ، واخرى تحب ان تملق فى خفة روحها،وسحر عيونها،فاذاجمعت إلى حسن هندامك، ورشاقة مظهرك، ولطف معشرك ، معرفة ما تصبو له نفوس أولئك النسوة الظاهرات ، ذوات النفوذ والشخصية البارزة فى الهيئة الاجتماعية ، فأظهرت الميل اليهن ، والثناء على مافى نفوسهن، والأعجاب بمايظهرن الرغبة فيه، والميل اليه ، فاذا استطعت أن تفعل هذا ، واستطعت أن تفعله بغير تكلف ، وبدون لهجة المتلطف ، وحركة المتظرف ، التى تشف عن الملق والرياء ، فانك تكون قد وضعت حجراً متيناً فى بناء هنائك ، ونجاحك وفلاحك

واعلم يا بنى أن هناك فارقاً كبيراً بين الظرف الصحيح ، والظرف المصطنع ، أى بين الظرف والتظرف . وما دمت قد طرقت هذا الباب

فيحسن بى أن انبهك إلى ضرورة التحلى بالأخلاق الظريفة، الخالية من كل تكلف او ادعاء ، او محاولة التودد إلى الناس بمظهر من مظاهر التظرف الممقوت ، الذى تلاحظه فى كثير من الناس الذين يحبون ان يوصفوا بأنهم أهل ظرف وأدب ورقة،ويسلكون فى سبيل الوصول لتلك الغاية طرقاً غير مألوفة،كأن تراهم يبتسمون لكل الوجوه،ويهشون ويتقربون ويتحككون بالناس ، ويسلمون عليهم باشارات من ايديهم ، وحركات من اجسامهم . وكل هذه أمور تجعل الانسان يشعر فى الحال بأنهم، فيما يظهرونه ، غير صادقين ولا مخلصين .

ولا يقتضى ما ذكرته لك من ضرورة الادب والتواضع،وحسن المقابلة، وظرف المعاملة، أن تخرج فيه عن الحد الطبعى الذى تألفه نفسك، ويألفه الناس منك . فلا تعبر الخط الفاصل بين الظرف الصحيح، والأدب الصادر عن اخلاص وحسن نية ، ومقدرة على اظهار هذه الصفات الفاضلة فى ثوبها الطبيعى الملائم ،— وبين ذلك التكلف الممقوت ، والتظرف المحتقر. ومرجع الحكم فى ذلك ، راجع الى العقل الراجح ، وحسن الاختيار، وكمال الاحتياط والوقار، بلا إفراط ولا تفريط فلا تكن ليناً فتعصر، ولا يابسا فتكسر ، وكن بين ذلك قواما

وما قلته لك عن الظرف والتظرف ، يصح تطبيقه على الحد الفاصل بين المداراة ، والسمو عن شهوة التفوق على الغير ، ومجاراة بعض الناس فى ضعفهم الخاص بهم... وبين التملق البارد، والرياء الكاذب، والنفاق الباطل ، وما يتبع ذلك من الصفات التى تنزل بصاحبها من درجة

السمو والكرامة، الى مركز الأتباع والمنافقين والمداجين. وهو ما أحذرك منه، وأنبهك إلى الحيطة من الوقوع فيه، والحكم فى ذلك الحد الفاصل موكول إلى حكمتك، أو ما يسمونه بالانجليزية « Your common sense »

هذا ما أردت ان اكتبه لك فى باب السلوك ومعاملة الناس، وأنا عالم انه لا يؤثر فيك، ولا فى غيرك من الناس شىء من هذا. إذ يرجع الأمر فى الحقيقة والنتيجة إلى إلهام فطرى، وذوق خاص، وطبيعة خاصة، فان وفقت إلى تلك الروح اللطيفة والمزاج الظريف، فانك تستفيد من هذه الملاحظات التى كتبتها لك بايجاز. ففى الاخذ من هذه النصائح من الوقاية، والحرص من الوقوع فى الخطأ والضرر، ما أظنه مفيداً لك ومنيراً لطريقك، ولهذا عنيت بتحرير هذه الرسالة إليك، وأسأل الله سبحانه وتعالى، أن يوفقك ويهديك وينير سبيلك، فالهداية والتوفيق، منه واليه. والسلام عليك، وتحية منى اليك، يا فلذة الكبد، وريحانة الفؤاد.

كلمة ختامية

كانت هذه الرسالة آخر الرسائل التى بعث بها المؤلف لولده وهو طالب فى الكلية الامريكية ببيروت، فلما اعلنت الحرب العالمية، وانقطعت المواصلات بين مصر وسوريا، لم يكتب الكاتب، بعد هذه الرسائل، شيئا لولده

الرسالة التاسعة عشر

النجاح فى الحياة

« هذه الرسالة كتبت سنة ٩٠٤ ونشرت فى احدى المجلات العلمية. وقد وعدنا »
« فى احدى الرسائل السابقة باعادة نشرها فى هذا الكتاب لعلاقتها بموضوع رسائله »

« كثيرون يفشلون وواحد ينجح »
(لورد تنيسون)

يؤثر عن أحد فلاسفة الفرنساويين أنه قال، إنى اشفق على من يود الكتابة فى المباحث الفلسفية بعد الذى كتبه فلاسفة اليونان الذين لم يتركوا مجالا لقائل، ولا ميدانا لصائل. وأنى اشفق منه على من يود الكتابة فى المباحث الاجتماعية الفلسفية، بعد الذى كتبه فلاسفة اليونان والرومان والاوربيين والشرقيين، من هنود وصينيين وفارسيين وأعراب واتراك. واكثر شفقة على قراء مثل هذا الكاتب الذى يكرر لهم ما قيل من قديم الزمان، وربما مسخه أو شوه محاسنه، وزفه اليهم عاطلا ناقصا.

هكذا أنا، وهكذا هو اعتقادى عند كتابة هذا الموضوع الذى كتب فيه فطاحل العلماء، والفت فيه الكتب، وخاض غماره كل فيلسوف كبير، وعالم عظيم، وتناقضت فيه المبادىء، واختلفت فيه الافكار، الى درجة استحسان القبيح، واستقباح الحسن، مما يضيع فى غمراته رشد الغائص على لآلىء الحكم، ويتوه فى وديانه عقل الباحث على اصول الحقائق، وخصوصاً فى

موضوع كهذا يجمع فى طياته، وثنايا طبقاته، من المبادىء ماله مساس بالاخلاق والتربية والعلوم، وعلاقة الظروف بالرجال، والرجال بالظروف، وانتهاز الفرص، ودخل الحظ فى نجاح الانسان وفشله، وهلم جرا. حتى لقد خطر ببالى أن لا اجوس خلال هذه الديار، العتيق منها والحديث، وأنا ناقص التجربة علما وعملا

***

خطر كل ذلك فى فكرى، وكلما أقدمت على الكتابة أحجمت، فلا أنا أود أن أقدم للقراء الذين أعهد فيهم العلم الواسع، شيئاً لا يليق بهم، ولا أنا أريد أن أتمثل باللورد كلفن أحد علماء العلوم الطبيعية فى العهد الأخير، الذى كان يكتب مقالة لاحدى المجلات العلمية عن ابرة البوصلة المعروفة فوقف عند نقطة رأى عندها لزوم ادخال اصلاح جديد على الابرة، فترك مقالته لم يكملها، إلا بعد عشر سنوات تمكن فيها من اختراع مايصلح هذه الآلة الدقيقة.

أريد بذلك ان هذا الموضوع تشعب معى عند التفكر فيه، الى درجة خيل لى ان مقالة واحدة لا تسعه، وانى لو كتبت فيه كتابا ضخما ماوفيته حقه، من البحث اللازم، وانى بعد ذلك كله لا آتى بشىء جديد!!

***

قبل البدء فى الموضوع يجب أن نعين أولا «ماذا نريده بالنجاح فى الحياة»

يراد بالنجاح فى الحياة: «نجاح الانسان فى الوصول الى غاية يعدها

الناس، ويراها الواصل اليها غاية عالية» وهى تختلف باختلاف الانظار الموجهة اليها، حتى انه ليصعب على الانسان حصرها ضمن دائرة واحدة. ولقد حاول ماكس نوردو الفيلسوف العصرى الألمانى أن يحصرها فقال «يمكننى حصر النجاح فى أن يكون الانسان محترماً، ذا قدر عظيم فى نظر الكثيرين من الناس» ولكن يناقضه غيره بقوله «وماذا يهم الانسان أن يكون محترماً ذا قدر عظيم فى نظر الناس وهو منغص البال حزين القلب؟» ويقول آخر «هل النجاح فى الحياة أن يكون الانسان محترما عند الناس؟ وهم لا يحترمون إلا الأغنياء، ولو كانوا جهلاء، ويحترمون أيضاً كثيرين ممن قام مجدهم الظاهر على ظروف أحوال، وممن وصلوا الى مراكزهم بأسفل الوسائط، وأدنى الوسائل؟». كل ذلك يدعونا الى القول بأن اختلاف الناس فى الغاية التى يرمون اليها هو الذى يزيد الموضوع إشكالا. فهذا يرى النجاح فى الحصول على مركز فى الحكومة، وذاك يراه فى اكتساب المال، وذلك يراه فى رفعة الجاه، وآخر يراه فى إصلاح حال البشر، أو نشر فضيلة وقطع دابر رذيلة، ولله فى خلقه شؤون

يقول ماركوس أوريليوس الفيلسوف الرومانى «يعجب العنكبوت بنفسه اذا اصطاد ذبابة، ويتباهى رجل اذا اصطاد أرنبا، وآخر يفرح اذا أمسكت شبكته سمكة، وبعضهم اذا انتصر فى موقعة أو فتح مدينة» وحقيقة: إن اختلاف عقول الناس، فى تقدير أشياء هذا الوجود مما يدهش العقل، فما تراه رذيلة، يراه غيرك فضيلة، وما يكون فى هذا الموضع حسنا، يكون فى غيره قبيحا، وما يُمدح عليه الرجل، تُذَم عليه المرأة. قال الامام

على « خيار خصال النساء شرار خصال الرجال (الزهو والجبن والبخل) فاذا كانت المرأة مزهوة، لم تمكن من نفسها. واذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها. واذا كانت جبانة فرقت (فزعت وخافت) من كل شيء يعرض لها. » ومن كلمات باسكال المأثورة « حقيقة هنا ، وخطأ وراء البرينيه »[1]

فاختلاف العقول فى كل شيء ، يؤدى الى عدم وجود « وحدة » متفق عليها، فلكى نفصل ما نريده بالنجاح فى الحياة ، لا بد لنا من وضعه ضمن دائرة وحدود، وغايات مخصوصة، لكل غاية مسعى خاص بها، يلزم طالب النجاح أن يوجد همته اليها ، وفى ذلك مايساعد طالب النجاح على الوصول الى مراده .

***

يمكن حصر النجاح فى الحياة فى ثلاثة أصول

(١) الشهرة والجاه وشرف السمعة وما يجرى مجرى ذلك من الأبهة والاحترام والاجلال

(٢) السعادة الدنيوية واطمئنان البال

(٣) الثروة وما تجلبه من الحصول على المشتبهات وقضاء اللذات .

(الشهرة) يقول عنها ملتون الشاعر الانكليزى « انها آخر نقص فى النفوس الشريفة » يريد بذلك ان طلب الشهرة لذاتها نقص فى النفوس الشريفة . ومراده: ان النفوس الشريفة تطلب الشهرة، وان كان ذلك نقصا

---

(١) كلمة لباسكال الفيلسوف اصلها Verité ici, erreur au de la Pyrinée يعنى « ما هو حق فى فرنسا قد يكون خطأ فى اسبانيا »

فى استعدادها ، وحطاً لمنزلتها، فان شيشرون يقول « يجب أن يكون المجد والفضيلة، لا الشهرة، أحب مطالب النفوس، بل الغرض الوحيد فى الحياة. » ولا نريد أن نخوض الآن فى ماهية الشهرة ، وأصناف الشهرة الكاذبة وغير الكاذبة، والدائمة وغير الدائمة، ولكن نكتفى بالقول بأنه اذا كانت غاية المرء من الشهرة شريفة، كأن يقصد المرء بها خدمة الجنس البشرى، وإرشاده وقيادته، وترك أثر نافع وراءه، فهى من أشرف المطالب التى تتوجه لها النفوس الشريفة، لا كما قال ملتون . ولا نخوض أيضاً فى هل الشهرة فى ذاتها تفيد صاحبها فى الحياة أو لا تفيده ، فقد يذهب بعضهم الى ان الشهرة مجلبة للعناء والشقاء، فى هذا العالم حتى قال بعضهم « الرجل الشهير كراكب الاسد، يهابه الناس، وهو لمركبه منهم أهيب » وقال آخر « الظهور يقصم الظهور »، لما فى ذلك من الحيطة والاحتراس والضغط على حرية الانسان وأمياله النفسانية من جهة، والخوف من السقوط فى عين الأمة والعالم بهفوة صغيرة من جهة أخرى الى غير ذلك مما تجلبه الشهرة على صاحبها . وقد تكون نافعة مفيدة له فى بعض الاحيان تحت شروط وظروف مخصوصة .

فاذا كانت بغية الناشىء الطامح، هى الشهرة وما يتبعها ويجرى مجراها، فتلزمه تربية خاصة، وإرشاد مخصوص ، واستعداد فطرى على شكل خاص

(السعادة الدنيوية واطمئنان البال) يقول ملتون الشاعر الانكليزى فى إحدى قصائده « العقل وهو فى مكانه يمكنه أن يجعل من النعيم جحيما، ومن الجحيم نعيما »

وفى هذه الكلمة الصغيرة كل المعانى التى يمكن أن يؤتى بها عن

السعادة واطمئنان البال فى هذا الوجود . كن غنيا كما تشاء ، كن شهيراً كما تشاء ، كن قوى البنيـة سليم الاعضاء كما تشاء ، وكن كما تشاء فيما تشاء ، فلن تكون سعيداً مستريح البال مطمئن الخاطر إلا إذا أراحك عقلك ، وأسعدك فكرك .

ماهى السعادة وما هو الشقاء . شيئان متناقضان حقيقة . ولكن قل لى بعيشك ، أليس كل مافى هـذا الوجود أمور نسبية لبعضها ؟ يراك الناس سعيداً ، وأنت ترى نفسك شقياً ، وترى غيرك سعيداً ، وهو يرى نفسه شقياً . فما هو الحد المحدود الذى يفصل الشقاء من السعادة ؟ لا يمكنك أبداً أن تضع حدوداً وشروطا مخصوصة ، فتقول إلى هنا تقف السعادة أو من هنا يبتدىء الشقاء ، فالموت الذى يراه الناس أكبر مصائب هذا الوجود ، يراه بعضهم رحمة وراحة واطمئنان بال من عناء الحياة

ليس من مات فاستراح بميت انما الميت ميت الاحيـاء

وقال أبو العلاء

ضجعة الموت رقدة يستريح ال قلب فيها والعيش مثل السهاد

فحتى فى هذا الأمر الفادح ، والخطب الجلل ، تختلف العقول ، فكيف يمكنها إذن أن تريك أين السعادة أو أين الشقاء ؟ على ذلك ترى أن قول ملتون : « أن العقل يجعل من النعيم جحيما ومن الجحيم نعيما » هو حل إشكال كلمتى السعادة والشقاء ، وعقلك هو الكفيل بسعادتك وشقائك . ويلزم لجعل العقل مؤدياً لسعادة الأنسان أن يكون حائزاً لمعارف

خاص ، وأن يكون ذا إستعداد خاص ، ومزاج خاص كما سنفصله بقدر ما يحتمل المقام .

(الثروة) وما تجلبه من الحصول على المشتهيات وقضاء اللذات . هى اليوم الغاية التى تصوب اليها سهام الانظار الطامحة الطامعة . هى اليوم معبودة العالم من صغيره لكبيره إلى درجة أن هذا الشغف بالثروة حجب عن انظار طلابها الغرض المقصود منها . وحتى أنك لترى الذين نالوا بغيتهم منها يحتقرونها فى نهاية الأمر عند مايرون أنها لم تزدهم نقطة سعادة واحدة فى كأس حياتهم ، بل بالعكس رأوا أنهم جمعوا لغيرهم وكدوا لسواهم ، وما حازوا من دنياهم ، إلا الشقاء والعناء . ولا يغرنك ما تراه من عربات عريضة واسعة ، وخيول مطهمة وملابس مبرقشة مزوقة ، وقصور باذخة وأسباب لذات متوفرة ، ما كل ذلك بنافع صاحبه ولا هو بمزيده لذة صغيرة عن أحقر حقير وأصغر صغير .

قال هلفسيو فى كلام له عن اللذة « لذة الفقير أقوى وأنفع وأكثر من ملذات الغنى ، يأكل الفقير بلذة يتمناها الغنى ولو انفق كل ماله » بل إن شئت فقل أن اللذات المادية للجنس البشرى متساوية متعادلة فى درجتها الطبيعية ، وإنما تزيد وتقوى عند شدة الحاجة اليها ، فهى عند الفقير أقوى منها عند الغنى ،

ولكن إذا كانت الثروة لا تجلب سعادة ولا لذة فكيف توجهت لها النفوس بمثل هذا الشغف والشوق الشديد وجعلتها إحدى غايات النجاح والفوز فى الحياة ؟ أقول حقيقة أن الثروة جديرة بأن تكون مطمح

انظار وهدف سهام لأنها إذا اصطحبت بالعقل والحكمة كانت من اكبر وسائل السعادة الشخصية والجاه والشرف والرفعة . وإذا شذت فقل والعلم والفضل وكلما تطمح اليه نفس أو يصبو اليه فؤاد . ولكن أقول أيضاً أنها قل أن تصحب بالعقل الرزين المعتدل لتناقض الاعتدال، والشغف بالمال فى كثير من الأحوال ، ذلك لأن الرجل المعتدل فى شؤونه وأموره ومعيشته واعماله لايفرط فى الحرص على المال فى مبدأ عمله أبداً، بل تراه يتمتع بالجزء الاعظم منه ويدخر شيئاً للمستقبل ومن كان هذا حاله يستحيل عليه أن يجمع مالا أو يحصل على ثروة كبيرة إلا بظروف خاصة نادرة لايصح أن تتخذ حجة فى رأى ، أو برهانا على فكر . وقد دلت التجارب أن الذين حازوا ثروة فى العالم بعملهم واجتهادهم وبنوا صروح مجدهم على الدرهم والدينار ، كانوا شواذ فى افراطهم ، إما فى الحرص والبخل ، وإما فى الأقدام والمجازفة ، وليس يدخل الرجل الرزين المعتدل بين هاتين الطبقتين. لذلك ترى أن الكثيرين من الاغنياء يبلون بأعراض خاصة وامراض عقلية متنوعة تعوقهم عن التمتع بلذاتهم وثروتهم ، حتى ولو نالوا من شرف السمعة وعلو الجاه ما يصل بهم إلى مراتب الملوك .

خذ مثلا رجلا مثل (بيربونت مورجان) هذا الرجل الذى أدهش العالم بذكائه واستعداده لجمع المال واستثماره، وهو فى صحة وقوة بدنية ، أفتراه متمتعاً مسروراً مستريحاً ؟ أتراه يتلذذ بحياته كما يتلذذ بها رجل معتدل فى الثروة والعقل ؟ تقول لماذا لايتمتع بثروته ؟ أقول لأنه بُلى بأمراض عقلية وأعراض طبعية جعلته يطمح لشىء خاص ليس فى إمكانى أن أوضحه

لك، أو أن أضعه ضمن دائرة محدودة، بل يكفى انه شىء من مطالب الحياة التى تحرم الانسان من راحة عقله

وليس يغرب عن فكر أحد ان طلاب الثروة وعشاقها الكثيرين يفتنون بحب الدنيا افتتاناً . والافراط فى كل شىء خروج عن حد الاعتدال وانتقال به الى ضده . وأريد أن أقول ان كل افراط فى صفة من الصفات مضعف وناقل لها الى ضدها ، وفيه اختلال للتوازن العقلى . وما أحسن مايقوله ملتون عن الدنيا « لاتحب دنياك ولا تبغضها ولكن يكفيك أن تعيش ماتعيشه منها براحة واطمئنان » فحب الدنيا الى درجة الافتتان بها متعب ومضر ، وكرهها الى درجة الزهد فيها مضر أيضا

وعلى كل حال فما حمت حول هذا الفكر إلا لأبين قبل الكلام عن التربية والصفات اللازمة للحصول على مطمع الثروة أنها كسابقتيها الشهرة والسعادة ، لا تكون نافعة أو صالحة، إلا إذا قرنت بالحكمة والعقل وأن مطمع الرجل العظيم يجب أن يكون عظيما محكما بحيث تكون النتيجة جديرة بقدر المسعى أى يكون الذى تحصل عليه يساوى ما انفقته من عمرك وفكرك .

***

أردت أن أخوض فى غمرات التربية والاستعداد اللازم للفوز فى الحياة لهذه الطبقات ، والمقاصد الثلاثة، فتشعبت معى المسالك ولم أقدر أن أحدد نوعاً من تربية يصلح للفوز فى إحدى هذه السبل حتى لقد ذهب فكرى إلى أن لادخل لتربية ولا دخل لعقل أو فكر . . . إن القارىء

ليندهش من قائل يقول إن التربية لادخل لها فى النجاح فى الحياة ثم انكى من كل ذلك ان لا دخل لعقل ولا فكر . . ان هذا القول يكاد أن يكون تخريفا ، وأنا اكاد أن اصدق نفسى واصدق المعترض علىّ ، وكل ذلك من متناقضات أحوال هذا الوجود

كم من عالم عامل ، وكم من رجل قضى عمره بين الكتب والدفاتر والمحابر ، وكم من رجال ذوى عقول واستعداد وذكاء ، لم ينجحوا فى الحياة ، وفاز كثيرون بنيل الشهرة والثروة ، وإن شئت فقل والسعادة ، بغير هذه العلوم وبغير هذه الكتب والدفاتر ، وبغير شىء مما نظنه خير الوسائل للنجاح . . .

يقول دارون شيخ علماء القرن الماضى وخصوصا فيما يختص بالانسان « أنى أميل إلى الأعتقاد بأن التربية والتعليم لا يفيدان فى أخلاقنا ونفوسنا واستعدادنا للفوز فى الحياة وان كل ما لدينا راجع إلى فطرة موروثة » ويقول هربرت سبنسر « لو لم يكن عندنا من العلم إلا ما نتعلمه فى المدارس لكانت انكلترا اليوم على ما كانت عليه فى القرون الوسطى فجميع ما عندنا من المعارف الكبرى التى صرنا بها أمة عظيمة فى الدنيا لم تنشأ من المدارس المعدة لذلك بل من أكواخ صغيرة وزوايا مهجورة . » وقال ديمولن « ان الكثير مما نتعلمه فى المدارس لا يفيدنا فى حياتنا ، »

وهنا موضوع البحث والمناقشة . إذا لم تنفع التربية والتعليم حتى فى اظهار ثمراتها فى الأمور الصغيرة ، فلأى شىء ينسب نجاح أولئك الذين ينشأون فى الاكواخ الحقيرة والزوايا المهجورة ؟ وهل يرجع ذلك إلى الحظ أو إلى العمل ؟

تأثير الحظ فى النجاح

الحظ ومترادفاته . البخت والمقدور . والمواهب اللدنية . والمصادفات . والظروف . والأستعداد الفطرى ، إلى غير ذلك ، وكلها ترجع إلى أصل واحد وهو فوز الأنسان بغير عمله وكده ونصبه . أو بعبارة اخرى مساعدة الظروف والمقادير له فى حال من الأحوال ، ومعنى ذلك عدم استقلال الشخص فى ذاته ونتائج اعماله

ينكر بعض الناس الحظ والمقادير ويقولون كل انسان بعمله ، ليس له إلا ما قام به بجده واجتهاده ، وعند ما يرون من أحوال هذه الدنيا ، فى انفسهم وفى غيرهم ، ما يدل على أن كثيرين تأتيهم المطالب جزافا بغير كد وعمل ، يقولون أنها المصادفات والظروف ، وكلها وان تنوعت اسماؤها ترجع كما قلنا إلى أصل واحد . قال « بوب » أحد مشاهير شعراء الانكليز « نحن العوبة فى يد الأقدار ترمينا يمينا وشمالا ونحن لا نعرف إلى أين نسير . فكما أن الحمل الصغير يمرح ويلعب قبل أن يذبح بدقيقة واحدة ، وربما لحس بلسانه اليد التى مدت لتريق دماءه ، كذلك نحن لا نعرف شيئاً مما ينتظرنا بعد لحظة واحدة » . ومع هذا فأن عقول الباحثين الذين غاصوا فى لجج العلوم والمعارف لا تكاد تستقر على نقطة واحدة فى هذا الخلاف الذى هو فى الحقيقة اكبر خلاف بين العقول البشرية من قديم الزمان ، حتى لا يكاد يخلو منه عصر من العصور . فتراه فى فلسفة الهنود ، كما هو فى فلسفة اليونان ، كما هو فى الرومان ، وفى مدنية الاسلام ، وفى المدنية

الحاضرة، وله فى كل زمان شكل واسم وخلاصته « هل الانسان مسير أو مخير »؟ وهل القدرة المدبرة لهذا الكون قيدت الأنسان بسلطة أو تركته حراً فيما يشاء، وغاية الأمر أنها المصادفات لا رابطة لها، ولا قانون يجمعها؟

هذا الذى ترك الافهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

ولبعض الفلاسفة المتأخرين من الماديين رأى فى هذا الموضوع يرونه يحل هذا الأشكال. فيقولون : لا عقل ولا روح ولا نفس فى الأنسان أبداً، وإنما هى الأجسام تختلف فى التركيب والامزجة، والضعف والقوة، لهذا العضو ولذلك الجهاز، فيختلف معها الأدراك، ويختلف الاستعداد، ويمتاز الناس على بعضهم فيما يسمونه عقلا ونفسا وروحا . وهنا يجب أن نقف وقفة صغيرة لمناقشة هذا الرأى المادى الحديث

يقولون إن الانسان شبيه بالآلة البخارية أو بآلة من الآلات تتركب من عدة أدوات صغيرة وكبيرة كل أداة تقوم بوظيفة. ومجموع القيام بهذه الوظائف ينتج حركة أو نتيجة مقصودة مطلوبة . فالمخ والاعصاب والقلب والمعدة والرئتان وكل مافى الجسم من الاعضاء التى تربو على الألف عداً، هى الآلات الصغيرة القائمة بوظائفها ويترتب على حسن انتظامها ودقتها وقيام كل عضو منها بوظيفته خير القيام بلا ضعف أو مؤثر خارجى « ادراك » أو « عقل » أو « فكر » أو « روح » أو « نفس » كما يترتب على قيام أجزاء الآلة البخارية بوظائفها « حركة » أو « دورة » أو « ضغط » أو « رفع » وهلم جرا

وقد قامت على قضاياهم هذه براهين كثيرة لا تقبل النقض وتوسعوا

فقالوا « المعدة هى الرجل » ، بمعنى ان الرجل كمعدته ، اذا كانت قوية كان عقله قويا ، وكان استعداده أرقى وأعلى من مريض المعدة، وهكذا قل عن كثير من الاعضاء الرئيسية فى الانسان كالدماغ والقلب والرئتين ويجمع ذلك قولهم « العقل السليم فى الجسم السليم »، واذا تمعنا قليلا فى هذا الرأى نرى ان لهذا الفريق من الفلاسفة حقاً فى كثير مما يقولون، فانك لترى أناساً كثيرين يريدون إدراك المعالى، ولكن لضعف فى أجسامهم لا يقوون ولا يداومون على الأعمال. بل ان الأخلاق نفسها أثر من آثار الجسم وأعضائه، فترى الذكاء والفطنة وسرعة الخاطر والبداهة، ثم الملل والفتور والكسل والميل الى الشهوات، من صفات عصبى المزاج . وترى القوة والبطش والحمق والاقدام والطيش من صفات دموى المزاج ، وقل ماشئت فى أخلاق الخليط من الأمزجة المعروفة ، كأن يكون الشخص دموى المزاج صفراويه عصبيه . فعلى هذا التركيب الخاص فى أجسام الناس تترتب الأخلاق والصفات والاستعداد وان شئت فقل فالفوز والفشل . ولعل ذلك هو معنى قول داروين « ان كل مالدينا من الصفات والأخلاق راجع الى فطرة موروثة »

وهنا يتشعب معنا مسلك آخر، وهو هل يريد « داروين » بالفطرة الموروثة فطرة يرثها الابناء عن الأمهات والاباء، أو يريد بها الفطرة الطبعية للانسان ؟ انى لا أعتقد فى وراثة الابناء عن الأمهات والآباء بمعنى الوراثة التى نفهمها، ولكن أعتقد بوراثة الأمزجة من الأم والأب، وفى اعتقادى أيضاً ان العلماء اذا أمكنهم حقيقة أن يقفوا على حقائق الأمزجة وتأثيرها

التام على الأفعال والأخلاق والاستعداد ، وأمكنهم أيضاً أن يعرفوا ما يكون التناسل من الأمزجة المختلفة، فانهم يحلون أشكالا كبيراً، ويساعدون على ترقية الجنس البشرى . إلا اننا من حيث موضوعنا هذا وعلى فرض اعتقادنا بالرأى الأخير (وهو إن أخلاق الانسان ونجاحه وفشله وارتقاءه وهبوطه واجتهاده وكسله كلها ترجع الى تركيب أعضاء جسمه وقيامها بوظائفها) نسب هذا الانتظام الجثمانى ، الى ماهو خارج عن عمل الانسان واجتهاده، ويكون الانسان فى الحقيقة آلة تسير كما شاء صانعوها الأول أو كما جاءت عفواً وجزافا، ويكون لا مزية لأحد على أحد، ولا ذنب على مقصر ، ولا عيب على ناقص ، ولا فضل لعالم أو لكامل

لو يعرف الانسان مقداره لم يفخر المولى على عبده

ثم نرجع بعد هذا الى القول بأن الانسان واقع تحت سلطة من المقادير والمصادفات والظروف، وان اجتهاد الانسان لا يفيده إلا اذا كان ثمت استعداد فطرى فيه ، بل إن شئت فقل ان صاحب الاستعداد ينقاد الى العمل بفطرته التى فطر عليها، ثم نميل فى حكمنا الى قول الشاعر

اذا لم يكن عون من الله للفتى فأول مايجنى عليه اجتهاده

أو كما قال بعضهم :

ألا إنما الدنيا كمثل رواية تمثلها الأحوال والقول والفعلُ
ونحن كأشباح نمثل دورنا كما شاء كتاب الرواية من قبلُ

تأثير العمل فى النجاح

هذا فيما يختص برأى القائلين بوقوع الانسان تحت سلطة «الحظوظ» والمصادفات ولكن هناك فريق آخر يقول بالعمل والجد والاجتهاد، وانتهاز الفرص، والاعتماد على النفس. ويجدر بنا هنا أن ننظر الى رأى هذا الفريق ونعرضه على حضرات القراء لنستخلص من الرأيين وسطاً يكون مناراً يستهدى بنوره كل طالب للنجاح والفوز فى المطالب الثلاثة التى بيناها فى أول هذه الرسالة

الكتب والرسائل القديمة والحديثة مفعمة بالحجج والآراء السديدة التى تحث على العمل والاجتهاد ، وضرورة ذلك لطالب الفوز والنجاح فى الحياة . وفعلا كيف يمكن لأحد أن يحصل على مراده إلا بالسعى والعمل والجد والجلد ؟ لا خلاف مطلقاً فى انه لا بد من السعى وانتهاز الفرص حتى مع وجود الاستعداد الكفيل بالنجاح، وحتى اذا اعترض القائلون بأن الاستعداد الطبعى هو الدافع للعمل، فان الظاهر للناس، هو ان الذين ينجحون فى الحياة لا يصلون الى أمانيهم ومطامعهم من الدرجات العالية إلا بالعمل والاجتهاد. قال اللورد أفبرى (السير جون لوبك) فى كتابه « مسرات الحياة » « كل من يسعى للفوز فى الحياة يناله ، وان كان لا يدرك منه كلما كان يؤمله فى نفسه . ان الفشل الشريف خير من الفوز الدنىء . ولعمرى ان الانسان إذا حاول وفشل، لا يخسر شيئاً مطلقا اللهم إلا إذا تولاه اليأس ودخل على قلبه القنوط. واننا إذا لم نحصل على مرادنا مرة، فليس ذلك بداع إلى قطع

الآمال » وقال با كون « من يسعى ويتيقظ يبصر الحظ فأنه « أى الحظ » وان كان اعمى لا يبصر ، فان العيون تبصره » . وقال الشاعر العربى ،

وعلىّ أن أسعى وليـ ـس علىّ إدراك النجاح

وينتج من ذلك أن العمل ضرورى للنجاح، ولكنه ليس كفيلا به، وعدم كفالته به، يرجع إلى أسباب كثيرة

منها اتساع دائرة المطامع ، وعدم تعيين الغاية التى يرمى اليها طالب النجاح . ذلك إنك تجد كثيرين من ذوي العقول الكبيرة والاستعداد الكبير ، يطمحون الى مافوق طاقتهم ، بل وفى كثير من الأحيان إلى ماهو فوق طاقة البشر . ومنشأ هذا الغلو والافراط فى المطامع والآمال ، أحلام يولدها الشباب ، وقلة التجارب وعدم قياس الحاضر بالماضى . وما أوسع عقول الشبان الأذكياء ، فى مبدأ حياتهم ، ميدانا للتصورات والأوهام حتى لقد يخيل للواحد منهم ، وهو لايزال فى دور التعليم ، أنه لا يكاد يحصل على شهادته النهائية ، حتى يلمس قبة الفلك بيديه، ويصل إلى ما وصل اليه غيره فى عشرات من السنين، جاهلا مايعترضه من العقبات التى يحتاج تجاوزها إلى الحزم والعزم والجلد والثبات والأقدام والصبر والانتظار ، حتى إذا فارق أبواب المدرسة واستقل فى العمل الذى وضع نفسه فيه تراه يحلق فى جو الاحلام ، ويطيش سهمه فى بيداء الأمانى والآمال ، ويجد ويجتهد سنة أو سنتين، فلا يجد نفسه بعد ذلك إلا واقفاً على عتبة باب النجاح الذى خيل له فى مبدأ أمره أنه يرقى بواسطته إلى أعلى قمم المجد فى أيام وليال . عند ذلك يتولاه اليأس، ويتسرب اليه الظن بأنه لم يحسن اختيار الطريق،

ويتذبذب فى سيره ، تذبذب « البندول » فى موضعه ، ويجلس فى غرفته كئيباً حزينا يبحث عن طريق آخر لنيل أمانيه الواسعة الكبيرة . وهكذا يقضى أيامه مجتهداً عاملا ، ولكنه غير مستقر على حال ، كريشة فى مهب الآمال، تراه كل سنة فى طريق لايكاد يقطع منه بضع خطوات ، حتى يرجع إلى غيره وتتوزع مواهبه وتنقبض نفسه ويرجع من كل عمله بالخيبة والفشل ، كالمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً ابقى ، وكما يقول الانكليز فى أمثالهم « الحجر المتدحرج لاينبت عليه العشب » . مع أنه لو ثبت فى مكان واحد ، وداوم على عمل واحد ، ووضع نصب عينيه غاية من الغايات ، فانه فى الغالب « مع ملاحظة ظروف اخرى » يصل اليها ويقرب منها، كما قال الأمام على « لايعدم الصبور الظفر وان طال به الزمان » ولذلك حذر الكثيرون من العقلاء طلاب النجاح من اتساع دائرة المطامع والتردد فقال المتنبى

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فان فساد الرأي أن تترددا

ولذلك أيضاً قال اللورد افبرى « كل من يسعى للفوز فى الحياة يناله وان كان لايدرك منه ما كان يؤمله فى نفسه » ولا يخفى أن كثرة المطامع تضل العقول كما قال الامام على : « اكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع »

ومن الأسباب التى لا تكفل النجاح مع العمل، عدم تقدير الظروف والمناسبات. فانك لتجد كثيرين من الناس نهضوا فى ظروف غير مناسبة، ولم يقدروا العقبات التى فى طريقهم حق قدرها، وخيلت لهم الطرق آمنة، والسبل مفتوحة، فأقدموا على اجتيازها مندفعين بحماسة ولدتها عقولهم الذكية

فجاهدوا وجالدوا ، ولكن عادوا بعد ذلك كله بالخيبة والخذلان ، يسبون الزمان والمكان . والشواهد على ذلك اكثر من أن تذكر . قال الدكتور جونسن الشاعر الانكليزى الشهير فى قصيدة عنوانها « غرور المآرب الأنسانية » يخاطب الناشىء الطامع « ولكن هب انك بلغت مالم يبلغه سواك حتى سلمت لك كنوز العلوم مفاتيحها وقادتك الحقيقة بشعاعها الساطع الوضاح، وصبت على الشك المريب نورها الباهر الزاهر. وهب أنك لم تخدع بالاشفاق عليك ، والميل اليك ، ولم تثن عزمك المصاعب . وهب أنك لم تركن الى الاهمال مرة ولم يسلب فؤادك فاتن الجمال ، فطاشت سهامه المسددة بالنبال . وهب أيضاً أن آلام الامراض لم تعرف لك مكانا ولم تزرك الاحزان يوما ما . . . فلا تظنن بعد ذلك كله أن العيش خال من الهموم والاكدار!! اليك عنى وسرح طرفك قليلا فى ماضى الايام وسالف الدهور، واترك درسك ساعة تتعلم فيها علوم الحكمة والاعتبار بغيرك ، وانظر ما ينتظر طالب النجاح على باب مدرسته من متاعب الحياة الدنيا. هنالك ينتظره الحسد والتعب والحاجة والفاقة ، وبعد ذلك القبر المفتوح. وانظر الى الامم كيف تراها بطيئة الادراك ، قليلة العدل لدرجة أنها لا تعظم مقام رجل كبير عندها إلا بعد أن يصير جسمه ترابا . وان غرتك الاحلام بعد ذلك فاعتبر بحياة « ليديات[1] » وما تم « لغاليليو[2] » !! ويريد بذلك

(١) ليديات عالم من علماء أوروبا فى القرن السابع عشر قام فى ظروف غير مناسبة واضطهده الحكام ومات فى سنة ١٦٤٦

(٢) غاليلو الذى اخترع النظارات المعظمة السماء باسمه اليوم حبس وأهين لأنه أبى أن يغير معتقداته الطبيعية ومات فى السجن عام ١٦٤٣

هذا الشاعر العظيم أن امثال ليديات وغاليليو وغيرهما ممن لا تكاد تحصر أسماؤهم، لم ينجحوا النجاح الذى يطلبونه، لأنهم قاموا فى ظروف غير مناسبة لأعمالهم ، ومثلهم كما قال توماس غراى الشاعر الانكليزى فى قصيدته الشهيرة المسماة « مرثية كتبت فى صحن كنيسة خلوية »[1] « كم من درة ثمينة ذات اشعة صافية تحجبها بطون البحار التى لا قرار لها، وكم من زهرة تزهو وتذبل وتضيع رائحتها الزكية فى هواء الصحراء »

ولدينا فى الشرق رجال كثيرون لو تمهدت لهم الظروف ، وفتح لهم الوسط، الذى يعيشون اليوم فيه، أبواب التقدم والارتقاء ، لكان فينا أمثال بسمارك وغلادستون وشمبرلن ونابوليون ومولتك وسبنسر وسيمون وكبلنغ وروتشيلد وكارنجى وروكفلر ومورجان. ولقد صدق الشاعر الشرقى الذى يقول :

تقلدتنى الليالى وهى مدبرة كأننى صارم فى كف منهزم

ومن الأسباب التى لا تكفل النجاح مع العمل، عدم انتهاز الفرص. فان كثيرين من الطامحين الطامعين يجدون ويجتهدون بثبات وتؤدة، ولكن تفوتهم الفرصة التى لو انتهزوها لخطوا أكبر خطوة فى طريق النجاح . ومن غرائب هذا الوجود تأثير الأمور الصغيرة على الكبيرة، فقد توجد لحظات صغيرة فى حياة الانسان يترتب على حركته أو سكونه فيها ، اما صعود الى السماك الأعلى، وإما انحطاط الى الدرك الأسفل. قال نابليون الكبير « فى موقعة مونتبللو أمرت كليرمان (أحد قواده) بالهجوم بثمانمائة فارس من

(1) Elegy Written in a Country Church Yard.

الخيالة تمكن بها من فصل ٦٠٠٠ جندى من البيادة المجرية أمام أعين الخيالة النمساوية الذين كانوا بعيدين عن إخوانهم المجريين بمسافة لا تزيد عن فرسخ يحتاج قطعه الى ربع ساعة من الزمان . وكثيراً ما كنت ألاحظ ان هذه الارباع من الساعة الزمنية هى التى تقرر الانتصار أو الخذلان فى موقعة من المواقع » وقال فكتور هوجو « توجد بعض دقائق ولحظات ، اذا نام فيها الانسان مات » وقال العربى « ان الفرصة اذا لم تنتهزها تصير غصة »

ويدخل ضمن ضياع الفرصة ، ضعف الاقدام كأن يكون الانسان شديد الحرص، كثير الحذر، فى وقت تلزم فيه المجازفة وعدم المبالاة. وهذا محمد على باشا مؤسس العائلة العلوية رفض مقابلة الوالى خسرو باشا لما طلبه فى ليلة من الليالى، لعلمه ان الوالى شعر بمساعيه واراد القضاء عليه . فكان هذا الاقدام منه على مخالفة الوالى ، هو السبب فى وصوله الى ماوصل اليه، ولو انه حذر عاقبة العصيان لما كان له اليوم هذا الاسم فى تاريخ العالم، ولما وصل به الاقدام الى مقام الملوك بعد ان كان جنديا صغيرا

وربما فات قوم جل امرهم من التأنى وكان الحزم لو عجلوا

تأثير الاخلاق فى النجاح

ولدينا أيضا نقطة أخرى لها تأثير عظيم على مسألة النجاح فى الحياة ونريد بها الاخلاق التى تمهد لصاحبها سبيل النجاح ، وتعلى مركزه وتنيله مراده . ومن المقرر فى اذهان الناشئين ، والمذاع على ألسنة الكثيرين من الناس، ان صفات الفضائل، كالصدق والامانة والتواضع والحلم وكرم النفس الى

غير ذلك ، هى الوسائل التى تساعد على الرقى والفوز فى معترك الحياة ولكن اذا نظرنا يمينا وشمالا نجد اناسا وصلوا الى درجات عالية فى «النجاح» بغير هذه الصفات بل بأضدادها. وهذا ماكس نورد والألمانى ينصح طالب النجاح، بالتحايل والتظاهر الكاذب، وعدم التواضع وعدم الصدق فى رسالته التى كتبها تحت عنوان « كيف تفوز فى معترك الحياة »[1] يقول فيها « كن اعظم الناس جدارة واتمهم كفاءة وكن قائما بأصعب الاعمال وأنفعها، ثم كن متواضعا فانك لاتجد مكافأة لك على عملك » وقال « تواضع تقعد على الابواب وتترك لغيرك صدور المجالس » ، يقول « فاخر بنفسك ولو كذبا وأطل فى كل ما فيه اعلاء شأنك، والحق باسمك اسمى الالقاب . واذا ذمك منافسوك فاتخذ ذمهم برهانا جديداً على علو قدرك، وقل انهم يحسدونك!! واعلم ان عقل الناس قاصر يؤثر عليهم الوهم فتراهم لا يقوون على معارضتك بل يحلونك المحل الذى رغبت فيه. فهم قوم يفهمون بالحرف الواحد كل ما يقال لهم ويعيدونه بسذاجة بدون تمييز بين الصدق والكذب أو الجد والهزل.. والخلاصة ان استعمل الغش والخداع لتصل الى مرادك فان ذلك هو السبيل الى نيل المطامع والآمال ! ! . . .

ومن كلمات كبلنغ المأثورة « الرجل المستدير ينفذ من الثقب المستدير » وقال ابو العلاء « ألا ان دين العالمين رياء » وقال شاعر عصرى

ضل سعى الشريف والخاسر المغ بون من كان طاهر الاخلاق

ونجاح الكثيرين من الثرثارين والمداهنين والمنافقين والمراوغين ،

---

(١) ترجمة المرحوم حسن بك رياض من موظفى المعارف سابقاً

يرجع بالطبع الى ضعف الطبيعة البشرية، وسلطة الوهم على عقول السذج من الناس ، بل وعقول غيرهم ، وبقدر ماتكون الامة جاهلة واقعة تحت سلطة الاوهام والخرافات ، يتمكن اولئك المراوغون المخادعون من الظهور والفوز بين ظهرانى هذه الامة ، فهم كاللصوص لايسرقون الا فى الظلام ، ظلام الجهل ، ولذلك ترى رجالا كثيرين من ذوى العقول الذكية والمعارف الواسعة (خصوصاً فى الشرق) متروكين فى زوايا الاهمال ، لانهم لا يقدرون، بل يترفعون عن الصفات والطرق والوسائل ، التى ينجح بها اولئك المداهنون المنافقون

ولقد شرحت فى مقالة نشرتها فى جريدة المؤيد تحت عنوان « المدرسة المفسدة » تأثير اولئك القوم ، الذين نجحوا او ينجحون فى الحياة بهذه الوسائل الدنيئة ، على اخلاق الناشئين الذين متى تحققوا ، ان اولئك القوم قد وصلوا الى درجات الرفعة والثروة والشهرة بمثل تلك الاخلاق ، قلدوهم فيها أملا فى الوصول الى ماوصلوا اليه . ان الافراد الذين يترفعون عن هذه الصفات متى وجدوها مؤدية الى نجاحهم ، يكادون يعدون على الاصابع . أين هم الافراد الذين يعملون بقول شيشرون « اذا كان كل الناس سافل الاخلاق منحطها ، فكن أنت قائماً بينهم عمودا من التقى والفضيلة » ؟؟ ولقد قال باكون « التحايل فى العمل كالمزيج من الحديد أو النحاس الذى تضيفه إلى المعدن الكريم كالذهب أو الفضة ، يساعد على تقويته ويصلحه للعمل ، ولكنه يقلل من قيمته » فمن هم الذين يفكرون فى « القيمة » لانفسهم اذا اعترضت مصالحهم ؟ وأين هم الذين يقدرون الناس

« بقيمتهم الاصلية » ؟؟ ونعود فنقول مع الرأى القائل بالاستعداد الفطرى الجسمانى، ان هناك أناسا هكذا خلقوا، وهكذا فطروا بطبيعتهم الاولى ، ولا غرابة ان يتخذوا تلك الاخلاق، سلما للنجاح ، فما أغرب هذا الوجود!

ومن رأى فريق من « الوصوليين » ، وضع الشىء فى محله، فان لزمت وسائل التحايل للنجاح فلتكن تلك الوسائل ، وان لزمت الفضائل ، فلتكن الفضائل ! حسبما يوجد الانسان ، وحيثما يقتضى الوسط الذى فيه يعيش ، فيناسب نفسه بما يحيط به ، عاملا بقول المتنبى

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء للقناة سنانا

***

هذه هى شؤون الحياة وضروبها فاختر لنفسك ما يحلو ان كنت طموحا طامعاً متطلعاً للثروة والفوز والجاه . ولكنى أنصح لك بالرجوع فى كل شىء الى عقلك ، وقدر ماتريده لمستقبلك وراحة فكرك ، واعلم قبل كل شىء ان السعادة الحقة فى غير هذه المطامع الدنيوية ويكفينا الاعتبار بما ورد به الحديث الشريف « اعملوا فكل ميسر لما خلق الله »

انتهى

صحيفة

فهرس

.. المقدمة

.. كلمة — محمد بك المويلحى

١ الرسالة الاولى

٥ « الثانية

١١ « الثالثة

١٧ « الرابعة

٢٣ « الخامسة

٢٨ « السادسة

٣٣ « السابعة — تعلم اللغات

٣٨ « الثامنة — اللغة العربية نحوا وآدابا

٤٤ « التاسعة — تعلم اللغة العربية وآدابها

٥٦ « العاشرة — اللغة الانكليزية نحو وآدابا

٧٤ « الحادية عشر — الترجمة

٨٦ « الثانية عشر — التاريخ

٩٧ « الرابعة عشر — العلوم الطبيعية

١٠٦ « الخامسة عشر — اختيار المهنة

١١٣ « السادسة عشر — بعد المدرسة

١٢٠ « السابعة عشر — السلوك

١٢٦ « الثامنة عشر —

١٣١ « التاسعة عشر — النجاح فى الحياة

مسامرات الشعب

اذا أردت تزيين مكتبتك وامتاع فكرك بخير ما تجود به الاقلام وتخرجه الافكار فانك موفق الى ذلك اذا دفعت

١٠٠ فقط

اشتراكك سلفاً فى ٤٠٠٠ صفحة

وهى مجموع صفحات السنة الثانية والعشرين

من مجلة مسامرات الشعب

اسماء روايات السنة الثانية والعشرين

الرواية الاولى — الوصمة الحمراء
« الثانية — ملكة الصحراء
« الثالثة — الشهداء
« الرابعة — ابن الطبيعه
« الخامسة — الأرض العذراء
الرواية السادسة — المملوك المفقود
« السابعة — صرعى الهموم
« الثامنة — الشريد
« التاسعة — جزاء الصابرين
« العاشرة — سلمى

ثمن العدد ١٠ غروش صاغ

وكل عدد ينتهى فى رواية واحدة

مكتبة ومطبعة الشعب

تأسستا سنة ١٩٠٠

بشارع محمد على بمصر

تليفون ٤١ ـ ٢٧ ـ صندوق البوسته ٣٦٢

AL-SHAAB

LIBRARY & PRINTING OFFICE

ESTABLISHED 1900

مطبعتنا مستعدة لطبع الكتب باللغة العربية والافرنكية ورقاع الزيارة وأوراق الدعوة والمناعى والظروف والجوابات والفواتير والكمبيالات والمنشورات والدوسيهات وكل ما يحتاج اليه التجار والمحامون والاطباء والاجزاجية فى أعمالهم وبها ورشة للتجليد بالنقوش الذهبية عربى وافرنكى

﴿ أثمان متهاودة وسرعة فى الانجاز واتقان فى العمل ﴾